إلى الأستاذ السيد حسين سراج
مع مودتي الخالصة
سيد قطب

سيد قطب

أشواك

ملتزم الطبع والنشر
دار سعد مصر
٢٢ شارع الفجالة بالقاهرة

إهداء

إلى التي خاضت معي في الأشواك، فدميت ودميت، وشقيت وشقيت. ثم سارت في طريق وسرت في طريق: جريحين بعد المعركة. لا نفسها إلى قرار، ولا نفسي إلى استقرار . . .

سيد قطب

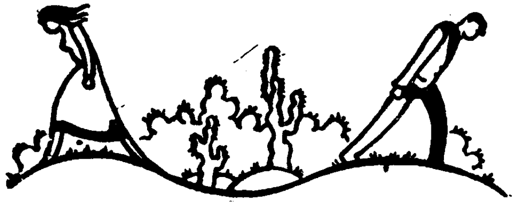

أشواك

حينما أمسك بيدها ليلبسها خاتم الخطوبة ، فى حفل من الأهل والأصدقاء ، وفى ضوء الأنوار الساطعة ، وعلى أنغام الموسيقى فى الحجرة المجاورة . . . أحس بيدها ترتعش متقلصة فى يده ، ونظر فإذا دمعة تند من عينيها .

شعر بشوكة حادة تنغرز فى فؤاده ، وغامت الدنيا فى عينيه ، وتوقع شراً غامضاً يوشك أن ينقض ، بل شعر بالكارثة تظلله وتغشى حياته . ولكنه تماسك ، وأسرع يدعوها إلى المقصف المعد فى مكان آخر ، غير ملتفت لدعوة المدعوين !

وهناك — قبل أن يحضر أحد — نظر فى عينيها المغرورقتين ، فإذا هى تحاول بشدة أن تبتسم ، وتحاول أن تبدو خفيفة رشيقة كعهدها فى غالب الأحيان .

أمسك بيدها بين يديه ، وحدق فى وجهها ، وهو يقول :

— ماذا ؟

قالت :

— لا شيء !

قال :

— بل هنالك أشياء . ويجب أن أعلم هذه الأشياء .

قالت :

— أوه ! قلت لك لاشيء . ثم اسكت لقد بدأوا يحضرون !

قال :

— أسكت . على أن تعديني بكل شيء بعد انصرافهم .

قالت :

— وهو كذلك !

وكانوا قد أقبلوا يتغامزون ، فسحبت يدها من يده ، متظاهرة بالدلال والخفة ، كأنما كانا يتناجيان ويتعابثان في غفلة من عيون الرقباء .

***

قالت في لهجة مناورة :

— ولماذا تصر على أن هناك شيئاً ؟ ألا تتأثر الفتاة ، وهي تقف في مفرق الطريق بين عهدين ؟

قال في لهجة جادة :

— اسمعي ياسميرة ، إنني أعرفك جيداً ، ولم تعد خافية منك تخفى علىّ ، ولقد لاحظت تلك النوبات التي تفجؤك وأنت معي في أبهج اللحظات ، وهي علامة لاتخطئ على أن هناك شيئاً . ثم إنني أحبك ذلك الحب الذي تعرفينه ، وإن بين قلبي وقلبك تلك « الشيفرة » الخفية ، التي تجعل لكل دقة في فؤادك صداها القوي في فؤادي ، فلا تحاولي أن تغالطيني أو تغالطي نفسك ، بعداليوم .

فارقتها ابتسامتها ، وخذلها تماسكها ، وغامت على وجهها سحابة من الأسى ، وقالت في صوت خائر ، كأنما ينبعث من أعماق هاوية :

— أعلم أنك تحبني فوق مقدور الإنسان ، وهذا مايعذب ضميري .

ثم سكتت سكتة رهيبة ، فتناول يدها في صمت ، وهو يحس هول العاصفة تجتاح نفسها فتحطمها ، وتوشك أن تجتاح حياتهما جميعاً ، وحدق بشدة في عينيها ، ونظر إليها مستزيداً !

قالت :

— اغفر لي أن أقول لك كل شيء . إنني أثق بك ثقة عميقة ، وأشعر بمقدار حبك لي ، ولو فتشت في قلبي لوجدت لك مثل هذا الشعور فيه . ولكن هنالك في ضميري أشواكاً سأضع عليها يدك ، وأترك لك التصرف فيها كما تريد !

قال :

— قولى كل شىء ، ولا تخافى !

قالت :

— لقد عزمت أن أقول . . .

***

. . . فى نهاية قصتها كانت تقول ، وهى تهتز وتختلج : « وهذه الدمعة التى رأيتها لم يكن منها بد . كنت أشيع بها عهداً عزيزاً . كان اللحن الموسيقى من حولى هو لحن الجنازة ، أشيع به نعشه للمرة الأخيرة . . . والآن لقد انتهى . . . » !

وحينما بلغت من القصة إلى هذا الحد كان قد اعتزم فى نفسه أمراً ، لايدرى كيف اعتزمه ، ولا بأى شعور اتجه إليه . كان الفارق بينه وبين فتاته عشر سنوات ، ولـكنه أحس فى هذه اللحظات القصار أنه يشيخ . وكان يحبها حباً عنيفاً مجنوناً ، ولـكنه أحس فى هذه اللحظات القصار أنه يحبها حباً سماوياً شفيفاً . وكان شديد الغيرة متوفز الإحساس . ولـكنه أحس فى هذه اللحظات القصار أنه فوق العواطف البشرية ، وفوق غرائز الإنسان .

قال فى صوت خفيض رتيب رهيب :

— يا بنيتى . إننى أعطف عليكما ؛ فاعتمدى علىّ وسأساعدكما !

قالت فى دهشة :

— تساعدنا ؟ وكيف ؟

قال فى توكيد :

— ستكونين له !

قالت فى ذعر :

— وأنت ؟

قال :

— سأكون لك منذ اليوم أخا أو صديقا !

قالت :

— وتضحى حبك لى كله ، وماضيك معى كله ؛ وجهدك من أجلى كله ؟

قال :

— نعم أضحيه . ولا زلت على استعداد لغيره من التضحيات . أضحيه وأنا أعلم أننى ضحيت بالحياة !

قالت مبهورة :

— يالله : إنك نبيل . بل أنت أنبل من إنسان . . .

ثم صمتت برهة، وارتمت فى أحضانه باكية فى نشيج متواصل وجسمها كله يرتجف ويهتز، واندفعت الكلمات من فيها كالقذيفة :

— لا . لا . لن يكون هذا . إنك نبيل جداً . إننى لك وحدك منذ هذه اللحظة .

وعادت إلى الصمت ، ثم انبعث صوتها خفيضاً كسيراً عميقاً، كأنما تخاطب شخصاً غائباً بعيداً

— ولكننى لا أصلح لك ... أحس أننى لست فى مستواك !

ونظر إليها فإذا هى زهرة تذبل ، أو شعلة تخبو . وإذا أثقال من الإعياء والهم والانكسار تحط على كيانها فيهوى . ونظر إلى نفسه ، فإذا كل خالجة فيها تهتف به إلى الفتاة التى يهواها . وإذا هو يذوب رقة لها وعطفاً عليها . وكالو الدالحانى العطوف تقدم إليها ، يربت كتفيها وظهرها ، ويرفع وجهها المطأطئ المتخاذل، فيطبع على جبينها قبلة ، فيها كل معانى الرحمة والعطف والحنان .

وكان نصف الليل قد أوشك. والآخرون قد هوّموا. ولكنهم تركوهما فى عزلتها .. إنهما خطيبان يتناجيان !

قال وهو يهم بأن يستأذن :

— على كل حال لندع الأمر الآن !

قالت :

— وستأتى غدا ؟

قال :

— إن شاء الله !

* * *

وعاد إلى مسكنه فى الضاحية . عاد مضعضع القوة ، مشتت الفكر ، موزع الوجدان .. أصابه فى أول الأمر ما يشبه الشلل ، فلا فكره يعمل ، ولا خياله يتصور ، ولا إرادته تهديه إلى اتجاه ... وفى القطار المتأخر الذى ينقله إلى الضاحية جلس متهالكا على مقعده . كان النور ضئيلا ، والركاب قليلين ، والقطار يشق الصحراء المقفرة .

وأحس أنه ينسرب فى التيه ، وأنه ينفض يديه من العالم ، فاستراح إلى هذا الشعور ، ونسى نفسه ، وانسرب فى الظلام .

ولكن القطار يقف . فيفتح عينيه مبهوتا ، ويضطرب ، وتمر عليه لحظة لا يدرى فيها وجهته ، ولا يهتدى إلى التصرف العادى بالخروج من القطار إلى الدار . ثم يسترد وعيه ، فيقف ، ويسير فى مماشى القطار ، وينزل ، وينساق إلى باب الخروج ، وكأنما قد حل مشكلة ، تتعب فى حلها الأعصاب !

وحينما آوى إلى فراشه ! انجلى عنه هذا الخُمار المريح ، وتنبهت أعصابه ، وواجه كأنما هوة تنفتح بين قدميه ، وفجوة تفصل شطرى حياته ، ومدى من العمر لا يقاس بالآباد !

لقد بنى فى أحلامه عشهما المنتظر ، ولقد مضى بخياله يطوى الأيام . ولقد عاش هـذه الأحلام عيشة الواقع ، واستغرق فى هذا الخيال ، حتى لم يعد يفرق بينه و بين الحقيقة !

فأين هو الآن من هذه الأحلام ؟

لقد أحس بالطمنة ، وعرف أنه فقد الحلم القديم : حلم الحورية الهاربة التى سيقودها مغمضة العينين إلى العش المسحور . بعد أن عاش فى هذا الحلم عامين كاملين ، و بعد أن سحر بها منذ اللقاء الأول ، وأعد نفسه وأحاسيسه كلها لارتقاب اليوم الموعود .

ووجد نفسه يبكى ...

ثم أدركته رحمة الله فنام .

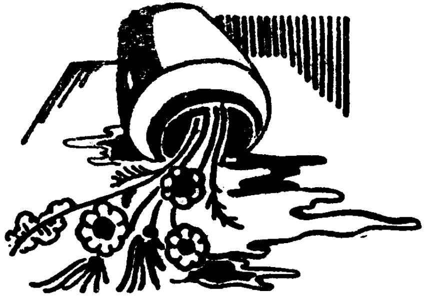

وكان صباح ...

وصل إلى مكتبه فى الصباح — ولا يدرى كيف وصل — لم يلق باله فى هذا اليوم إلى شىء فى الطريق . تم كل شىء كما تم الحركة الآلية .

وكان يبدو على مظهره السكون والاستسلام والانقياد، لم يكن له رأى ولا هدف ولا اتجاه . صحا فذهب إلى مرافق المياه ، ولبس ملابسه فى صمت ، وانطلق إلى الطريق فركب القطار ، وجلس فى مقعده ، ووصل إلى الديوان ..!

وقال أحد زملائه فى المكتب :

— خير إن شاء الله . مالك يافلان ؟

فافترت شفتاه عن ابتسامة مغتصبة ذابلة وقال :

— خير ! لا شىء ! أترى شيئاً ؟

قال زميله :

— ألمح عليك الإجهاد . لابد أنك كنت سهران !

قال :

— أى والله ! كنت سهران !

ثم انصرف الزملاء إلى أحاديثهم اليومية التافهة ، وانصرف هو إلى نفسه ، لا يحاول حتى أن يتكلف فيتجمل أمام الزملاء . كان لا يحس بأحد : بل لم يكن يحس بالمكان !

ودق جرس التليفون . فإذا بالموظف القريب يناديه . وصحا فجأة فاختل توازنه ، وهو يلبى النداء وأمسك بالسماعة ، وفى يده بقية من اضطراب .

قال : آلو ... !

قالت :

— آلو . أنت سامى ؟

قال ولم يدرك بعد شيئاً :

— نعم ياسيدتى !

قالت فى لهجة مرحة مستخفة :

— أتعرف من التى تكلمك ؟

ولم يكن يدرى صوتها فى التليفون ، ولكنه وجد فى نفسه بعض الانتعاش على كل حال .

قال :

— لا . من أنت ؟

قالت :

— سميرة !

نسى أنه فى حجرة بين زملاء . وأحس بالوحدة والانفراد ، بل غابت عنه معالم المكان والزمان ! وارتجفت كل ذرة فى كيانه وحاول أن يقول أشياء كثيرة لا يدريها ، فاضطربت فى فمه الكلمات . وأخيراً فتح الله عليه بجملة تافهة بعد مضى لحظات :

— صحيح ؟ أنت سميرة !

قالت وقد جلجل صوتها بضحكة عذبة ، نفذت إلى ذرات جسمه وحناياه :

— والله أنا ! ألا تصدق ؟

قال وقد استرد شيئاً من إرادته ونفسه :

— إن صوتك رائع فى التليفون !

قالت مشرقة مبتهجة :

— صحيح ؟

قال :

— والله !

وخاف ألا يجد ألفاظاً ، وألا يهتدى إلى موضوع يطيل به الحديث ، فقال :

— وأين أنت الآن ؟

قالت :

— أتكلم من صيدلية فى العتبة .

فاستمر فى هذا الحديث التافه الذى هو أبعد ما يكون عما يريد أن يقول :

— وإلى متى ستمكثين هناك ؟ !

قالت :

— إننى عائدة إلى البيت الآن .

وأغلق عليه الحديث . فصمت لحظة . وبحث عن موضوع جديد ، أو عن طريقة لإنهاء المحادثة ، فلم يفتح الله عليه بشىء . فما أنقذه إلا صوتها هى ، تراجع الحديث :

— ... وستأتى الليلة ؟ !

قال فى توكيد ظاهر :

— طبعاً ! متى يحسن أن أجىء ؟

قالت :

— فى أى وقت . ولكن حذار ألا تأتى !

قال فى نشوة وخفة :

— لا آتى ؟ وكيف ؟ سأكون عندكم فى الساعة الخامسة .

وفى هذه اللحظة تنبه إلى أنه بين زملاء . فأراد فى محاولة ساذجة أن يبعد عن نفسه الريب ، وعنها هى أولا ! وإن لم يعلم أحد من تكون ! قال :

— أخبرى « بابا » أننى سأحضر فى هذه الساعة !

قالت :

— هو بطبيعته يكون موجوداً . . . سعيدة !

قال :

— سعيدة ... إلى اللقاء .

***

ووضع السماعة ، وهو فى نشوة حقيقية كالتى يحدثها الشراب . كان يحس أن وجهه يتلهب وأنفاسه تفور ! وكان يحس أن كيانه يختلج ، وأنه لو سار لتلجلجت خطاه .

وقال زميله الذى لقيه فى الصباح :

— يبدو أنها محادثة سارة . لقد أشرق محياك !

قال وهو يتلعثم ويضحك ويضبط شفتيه فى آن :

— نعم . (وبلا سابق إنذار) ... إنها خطيبتى !

وأثار هذا التصريح عاصفة بين الزملاء : قال أحدهم : مبروك ! وقال الآخر : لم تدعنا إلى الحفلة ! وقال الثالث : ولا أخذنا « الملبّس » ! وقال أحدهم : والله وقعت يا أخانا فى النهاية ، وجاءت زجلك ! فرد عليه زميله : اسكت . المهم أن لا تفوتنا الحفلة الثانية ولا « الملبس » !

ووجد نفسه يقول فى دعابة وبشر وانطلاق :

— اطمئنوا . فلن يفوتكم شىء إن شاء الله .

وكانت هذه الفترة ، وتلك الضجة، كفيلتين باسترجاع اتزانه. فتحرك يغادر الحجرة لا يدرى إلى أى اتجاه . ولكنه يسير بخطوات سريعة قافزة نشيطة ، يقطع الممشى الطويل أمام الحجر حيث لا يتبين له قصداً ، فيرتد يقطعه كرة أخرى !

***

وثقلت عليه ساعات الديوان ـ وإن كان غير مقيد بالمواعيد ـ فظل يغالب رغبته فى الخروج ـ وإن كان لا يدرى إلى أين يخرج ـ حتى بقى على الموعد الرسمى ثلاثة أرباع الساعة . وهنا أفلتت منه

أعصابه ، واستعصى عليه البقاء . فخرج إلى الفضاء !

وحينما وجد نفسه خارج الديوان ، واجهته مشكلة الاتجاه :

أين يذهب الآن ؟ إلى منزله ليتناول الغداء ، ثم يعود فى الميعاد !

وسار بضع خطوات،ولكن جاذبا قويا فى نفسه كان يشده عن المسير. فماد أدراجه حتى وقف أمام الديوان ...

ولم لا يتغدى فى المدينة،ويستريح فى مقهى ، حتى يأتى الميعاد؟ واندفع فى هذا الاتجاه . وشعر بأنه استراح إليه ! إنه هنا فى المدينة يكون قريباً من الدار ! !

وأحس أنه سعيد . وغابت عن حسه الأشواك . وسار فى خطوات خفيفة ، مشرق النفس ، نشيط الجسم ، مفتح الحواس .

وفى مطعم يعتاده حين يتخلف فى القاهرة تناول غداءه بنهم ، وإن لم يشعر بما يذوق . ثم انتقل إلى مشرب هادئ يستريح إلى هدوئه . وجلس يرتقب الميعاد .

ولكن الساعة لا تزال الثالثة . وأمامه ساعتان طويلتان . فأين ينفق ذلك الوقت الطويل ؟ وثقل عليه الزمن ـ كما ثقل عليه الطعام ـ وفارقه نشاطه وخفته ، وبدأ يجثم على صدره نوع من

الكآبة تسرب إلى نفسه من حيث لايدرى . وفى هذا الجو الذى استحال كامداً بعد فترة ، أخذت تتوارد على خواطره صور الأمس القريب : يدها وهى ترتعش فى يده ، ودمعتها تندّ من عينيها ، وخلوتهما بعد انصراف المدعوين ، واعترافها له بالأشواك ، فيشعر بهوة عميقة تفصل بينه وبينها . وهنا يحس بيد تقبض أعصابه وتضغطها ، فينتفض كمن يريد الخلاص .

ويثقل عليه جو المكان وهدوؤه ، والظلال التى تبعثها الأنوار الملونة المضاءة نهاراً فى الركن الذى آوى إليه . ويحس أنه يلتقط أنفاسه بصعوبة ، فينتفض واقفاً كمن يفاجأ بخطر ، ويتناول أوراقه وجرائده. ثم ينطلق مسرعا إلى الشارع ، كالذى يفر من شيء مخيف!

ثم يسير فى الطريق خطوات سريعة بعض الشيء . ثم يهدئ سرعته قليلاً ، وهو يتطلع إلى بعض واجهات المتاجر الزجاجية ، على غير انتباه .

وفجأة يقف أمام دكانة روائح عطرية ، ويتفحص الزجاجات الأنيقة ، فتعجبه إحداها . وفجأة تهتف به خواطره أن يختار واحدة منها هـدية ، فيدب فى كيانه النشاط المرح ، وتنجلى عنه الغمرة الثقيلة ، ويشعر فى جسده بالخفة والانتعاش .

ولم يطل الحديث بينه وبين البائع . فقد اختار زجاجة على هيئة قلب ، من عطر فرنسى قديم التعبئة (كما كتب على الزجاجة) ونقده الثمن المرتفع بعض الشيء، وأخذها فى علبتها الأنيقة وخرج...

خرج فرحان كالطفل باللعبة الجديدة . وسار وفى يده الزجاجة يمسكها بحرص واحتراس . واندفعت خطواته مرحة نشيطة قافزة . ولـكن إلى غير اتجاه . .

كان سائراً فى الشارع وهو نشوان ، فكان كالمفاجأة له أن ينظر فيرى الترام الذى يركبه إلى هناك ، وكاد يقفز! لولا أنه استيقظ إلى أن الموعد بعيد . فترك الترام يمضى وفى نفسه شوق ماهوف!

***

وبعد خطوات وجد مقهى مطروقاً ، ووجد نفسه يجلس إلى مقعد فيه ، كالذى طال عليه السرى فألقى بجسمه ليستريح . وطلب شاياً ، فأحس بعد تناوله بالنشاط واليقظة — ونظر ساعته فإذا هى الرابعة إلا ربعاً . بقيت ساعة وربع والطريق لا يستغرق أكثر من نصف ساعة . واستثقل الزمن الباقى . فقام يمشى .

وفى هذه المرة لم يستطع أن يغالب جاذبية الترام حينما جاء

مرة أخرى ، فقفز فى وسط المحطتين ، وآوى إلى مقاعد الدرجة الأولى الخالية . لقد كان يحس دائماً وهو ذاهب إلى هناك انه أعز من أن يندس فى غمار الجماهير !

وعند ما كان فى محطة المنزل كانت الساعة بالضبط الرابعة والربع . وكان يحرص على أن يبدو هادئاً مضبوطاً فى تصرفاته وأقواله.يدارى بهذا المظهر مايضطرب فى نفسه من نوازع وهواتف واندفاعات ، فعز عليه أن يخلف ميعاده ، وأن يزعجهم قبل الميعاد ، فراح يتمشى !

وكان قريباً من المنزل فضاء فسيح ، يحمل له فى نفسه بعض الذكريات . لقد كان يسكن هنا قبل عشرة أعوام ، وكان يومها فتى يافعاً ، كان هذا الفضاء الفسيح يعجبه فيجول فيه ، حيث يخلو إلى الهواء والفضاء . . . والشعر فى بعض الأحيان !

راح ينقل خطوه فى هذا الفضاء ويجوس خلاله ، وخلال الذكريات التى استطاعت أن تطغى على الحاضر بكل ما فيه .

وحينما انتبه . وجد الساعة الخامسة إلا دقائق معدودات . فأبهجه هذا ونشّطه ، وانطلق يغذ السير ، ويسرع الخطوات فى اتجاه الدار !

صراع

استقبلته مشرقة متهللة كأن لم يكن بالأمس شىء ، واستقبله الجميع فى ابتهاج ، وقدم لها زجاجة العطر الثمينة . وبدلاً من أن يزيد هذا فى إشراقها وتهللها . لاحظ فى يدها رجفة وهى تتناول الهدية ! فانقبضت نفسه ، وتذكر خاتم الخطوبة ! وغاض البشر من وجهه على الرغم من تظاهره بالبشاشة .

ولم يلحظ أحد من أهل المنزل شيئاً مما حدث . بل بدا عليهم وعلى الأم خاصة نوع من الاستبشار المتخفف الطليق . كانوا قوماً طيبين ، لا تنطوى نفوسهم على شىء من التركيب والتعقيد . وكانوا مغرقين فى ثقة مريحة بمستقبل ابنتهم السعيد ، مع هذا الشاب الودود . وكانت ألفته بهم قد توثقت فى خلال فترة طويلة ، فعاد فرداً من الأسرة ، موثوقاً به كل الوثوق ، محبوباً من كل فرد فى المنزل ، حتى من كلبهم الصغير الذى كان يبصبص له بذنبه ، ويتواثب على قدميه ، يشاركه فى ذلك أخواها الصغيران !

وانطلق الجميع إلى لون من ألوان الحديث المرح اللطيف ،

يناسب جو الخطوبة السعيدة ! ثم أخذ الجميع ينسحبون واحداً إثر واحد ، ليخلو الجو للخطيبين السعيدين !

***

قالت — بعد أن خلا بهما المكان — وقد علا وجهها نوع من الجد والكآبة :

— اسمع يا سامى . . . أرجو ألا تحضر لى شيئاً من الهدايا !

وأحس لهذا الحديث بوقع الشوك المسموم ، فقال فى ألم يخفيه :

— ولماذا يا سميرة ؟

قالت :

— لا أستحق !

قالتها فى وجوم ثقيل ، وفى همود حسير . وطأطأت رأسها إلى الأرض . كأنما هى آخر كلمة تقال !

قال :

— اسمعى . إننى لا أستريح لمثل هذه الكلمات . فهل لديك حديث آخر ؟ من فضلك أنا لست فى حاجة إلى المزيد .

ولمحت فى لهجته مرارة ، وفى قسماته وجوماً . فحاولت أن تغير الجو بابتسامة مغتصبة . ولكنها راحت تقول :

— صحيح ! أنا لا أستحق منك كل هذا الاهتمام . إنك إنسان طيب القلب ، خالص النية . أما أنا فبنت شريرة . من الذى يرى كل هذا النبل ثم لا يخلص لك . ولكن أنا . أنا التى تسىء إليك فى ليلة خطوبتك !

واربد وجهها وتغير ، وهى تلقى إليه بالكلمات الأخيرة . وهنا واجهته المشكلة كلها ، وكان قد ركنها جانباً ، ووخزته الأشواك بحدة ، فبدت على وجهه أمارات الألم الحاد . وأدركت بغريزتها الفطنة حقيقة الألم وعمقه ، فارتدت بسرعة إلى الجانب الآخر .

قالت فى تودد مغر ، وفى استسلام وديع :

— ولكننى أرجو أن تكون بجانبى . وألا تدعنى وحيدة . إننى أستطيع أن أقاوم الماضى ، وأن أنتزع الأشواك حين أراك معى ؛ أستمد منك الثقة والحرارة . وإنك لصاحب حق فى أن تمتلىء نفسك بالشكوك ، وفى أن تقطع ما بيننا كله ، وأن تفصم هذه الخطبة المعقودة ، وأن تسترد « شبكتك » أو تطوح بها فى الفضاء . ولكن لتذكر مع ذلك أننى كشفت لك عن كل شىء راغبة غير مضطرة . وأنى أثق بك ثقة لا حد لها ، وأن أحداً من أهلى — حتى أمى — لا يعلم شيئاً مما حدثتك عنه ، واعترفت لك

به . . . إنك الآن الرجل الوحيد الذى أعوذ به من الماضى وألوذ به من الأشواك ! ! !

ونظر إلى جبينها المطرق ، وإلى عينيها الذابلتين . فإذا كل معانى الاستسلام : « إنك الآن الرجل الوحيد ، الذى أعوذ به من الماضى ، وألوذ به من الأشواك » !

قال :

— وهو ؟ ما رأيه ؟ وما موقفه من موقفك الآن ؟

قالت :

— لست أدرى . فإنى لم أعد أراه . لقد رفضوه كل الرفض حينما تقدم ليخطبنى منذ عام .

قال :

— ما رأيك فى أنى أحب أن أراه ؟

قالت :

— تراه ؟ وماذا تصنع به ؟ (وبدا عليها الاضطراب) .

قال :

— لست أدرى . ولـكن لابد لى أن أراه !

قالت متوسلة :

— لست أفهم معنى هذا الإصرار . نفسى تحدثنى أن الخير فى ألا تراه !

وكان هذا وحده كفيلاً بأن يزيده إصراراً . فارتفعت نبرة صوته فى لهجة جازمة :

— علاقتنا كلها متوقفة على أن أراه . فأعطينى عنوانه ، ولا عليك مما يحدث بعد الآن !

قالت :

— تهدد ! إذن فإليك عنوانه . . . (ونظرت إليه نظرة طويلة مليئة بالرجاء والتوسل والاستفسار) !

* * *

لم يكن يدرى — فى الحقيقة — لماذا يود أن يراه . إنه لم يسأل نفسه هذا السؤال..ألعله يود أن يقيس نفسه إليه فى حومة الصراع ! على أية حال لقد اندفع يصفق فى فناء منزله القريب من منزلها ، وهو يسأل عن الشاب الضابط « ضياء » !

وخرج له شاب أبيض البشرة قصير بعض الشىء ، فى حركاته شىء من البرود ، وأحس فى نفسه بشىء من الراحة والاطمئنان لا يدرى مأتاه !

قال له :

— حضرتك ضياء أفندى

قال :

— نعم

قال :

— أنا سامى . . . وأرغب فى أن أحادثك فى أمر خاص . ولو أنك لا تعرفنى من قبل ! قال الشاب :

— آه . سامى . . . لا . أنا أعرفك. سأرتدى ملابسى حالا . وأخرج إليك بعيدا عن المنزل ... تفضل ... !!!

قال :

— لا . لا داعى للدخول . أنا فى انتظارك على محطة الترام .

* * *

ووقف على محطة الترام يقطعها جيئة وذهوبا ، وفى خطواته آلية ، وفى نفسه اضطراب : لماذا قابله ؟ وما الذى سيحدثه به ؟ . . . وأحس فى رأسه بغليان !

ولم تمض دقائق حتى كان الشاب بملابسه الرسمية ! فقطع عليه اضطرابه .

قال الشاب :

— أين نجلس ؟

قال :

— فى أى مكان . ليس فى هذا الشارع إلا قهوة « نصف بلدية » ولكن لا بأس بها . فهى أقرب من مقاهى القاهرة . هاهو ذا الترام ، فلنركب هاتين المحطتين .

وقفزا فأدركا الترام .

* * *

لم يكن يدرى كيف يبدأ الحديث . فصفق للنادل وكلفه إحضار « الطلبين » وكان فى هذا مهلة عله يجد مفتاح الحديث . ولكن النادل مضى ثم عاد ، دون أن يفتح الله عليه بكلمة تقال .

وأخيراً زالت الحبسة من لسانه ، فتحرك ، ودار الحوار .

— لقد أخذت عنوانك من سميرة !

— آه . إنها بنت طيبة . لقد عرفت أنك خطبتها . وهى بنت حلال !

— لقد خطبتها قبل أن أعلم قصتكما . أما الآن فقد تتغير الأحوال .

— إذن هى قصت عليك كل شىء ؟

— نعم . وبالتفصيل . وإنى لأحب أن أعرف : ما إذا كنتما

اليوم راغبين فى محاولة ما أخفقتما فيه قبل عام . إننى أضع بين يديكما نفوذى لدى أهلها الذين يعدوننى واحداً منهم ، ونقودى التى أعددتها إذا كان هذا عائقاً أيضاً .

لم يدر كيف اندفعت من فيه هذه الكلمات . أهى رغبته الحقيقية فى التخلى عنها بعد أن ظهر له منها ماظهر ؟ أم هو إيثاره لسعادتها كما كان يزعم لنفسه ؟ أم هو استطلاع ما بينهما من تماسك واتصال ؟

ولكن الشاب لم يتحمس لهذا العرض — كما كان ينتظر — بل راح يقول فى لهجة باردة فيها شىء من الطراوة ومط الألفاظ :

— ولكن ماذا نصنع لأهلها . لقد قابلونى مقابلة سيئة جداً حينما ذهبت أخطبها. ثم إن أهلى كذلك يمانعون فى زواجى منها إلى حد تهديدى بالقتل إذا أنا أخذتها . إن أمى تريد لى بنتا غنية . بنت صادق باشا . وهم يعرفون اسمك وصلتك بسميرة . ولذا لم أرد أن أستقبلك فى المنزل !

ثم زايله البرود ، وعلت نبرة صوته ، وبدا فيها شىء من الصدق والإخلاص وهو يقول : لن أتزوج مادامت سميرة ليست من نصيبى!

قال ، وقد تغيرت نفسه ، وبدا فيها غيظ مكتوم :

— قلت لك : إننى سأمهد لكما الطريق . سأجعل أهلها يقبلونك . أما أهلك أنت فعليك إقناعهم . وإن لم يقتنعوا . أفلست يا أخى رجلا ؟ (قالها فى لهجة غيظ وازدراء) !

قال الشاب — وقد ذهبت عنه حماسته الوقتية :

— ولكننى مسافر للسودان بعد أيام ! فإذا كانت تنتظرنى حتى أعود فسأتقدم إليها !

وكاد يصفعه . ولكنه تمالك . ثم اندفع يقول :

— هذا ليس كلاما . فإن كنت تريد شيئاً ، فتقدم اليوم ، وقدم مهراً ، إذا لم تستطع أن تكتب كتابك !

قال :

— إذا رضى أهلها فأنا على استعداد .

عندئذ أحس أن طعنة أصابته ، وأن الدنيا تظلم فى عينيه . وانقطع حبل الحديث ، ولكن الشاب عاود الكلام فى رخاوة عجيبة :

— أنا لا أعرف لماذا تكرهها أمى كل هذه الكراهية ؟ إن أهلى يعتقدون أنها ستأخذنى منهم ، مع أنها هى التى ردتنى إليهم حين غضبت منهم فى العام الماضى ، وبقيت فى المعسكر لا أدخل بيتهم عدة أيام ؟

قال فى استفسار مغيظ :

— وكيف ردتك إليهم ؟

قال الشاب :

— جاءت إلىّ فى المعسكر عند الهرم . وهددتنى بقطع علاقاتها بى إذا أنا لم أعد للمنزل . فعدت معها . . .

جاءت إليه فى المعسكر عند الهرم . هنا أحس بالدوار . هنا تراقصت فى خياله عشرات من الصور المتتابعة ، كان يقف عند صورة منها ثم يطيل الوقوف . صورة « خيمة » فى المعسكر . وهما منفردان . وهو هذا الشاب « المائع » وهى هذه الفتاة التى كانت ترتعش حينما تراه — كما قالت له فى الاعتراف — والتى ودعته بدموعها فى ليلة « الشبكة » وقالت : إن اللحن من حولها كان لحن الجنازة تشيعه به إلى مقره الأخير . مقره الأخير ؟ ها ها ها !

ووجد نفسه يقف للانصراف . ووجد نفسه يقول فى حماسة :

— انتهينا . ستتقدم لأهلها غداً . وسأنسحب أنا الليلة . وسأمهد لكما كل شىء منذ الآن !

***

لم يكن يدور فى نفسه — وهو عائد إلى منزلها — إلا خاطر واحد : خاطر الانسحاب . وإلا صورة واحدة : صورة « الخيمة » . ولكنه يكذب على نفسه وعلى الناس لو قال : إن نفسه لم تكن شعلة من الجحيم ، وإن دماءه لم تكن تغلى فى عروقه . وإنه لم تدر فى أعماق حسه معركة بين شتى الاتجاهات ؛ وإنه لم يستسهل حماقة الجريمة على وضع من الأوضاع !

ودخل المنزل ، فبادرت إليه ، وفى عينيها نظرة استفهام متوسلة . فاتسعت حدقتاها — وهى تنظر إليه — وعلا صدرها وهبط ، وماتت على لسانها الكلمات !

وانقضت فترة طويلة قبل أن يجد لسانه ليتكلم .

قال وهو يتكلف السخرية وعدم المبالاة :

— انتهينا يا ستى . استعدى للعودة إلى ضياء !

فدنت منه ووضعت يدها على كتفه فى خوف الطفلة المتوسلة وقالت :

— ضياء ! وكيف ؟

قال وقد زايله هدوؤه المتصنع :

— ضياء صاحب « الخيمة » فى معسكر الهرم !

بدا على وجهها الذعر ، وعلى عينيها الاضطراب ، وتلعثم لسانها بالكلمات . ثم قالت فى انفعال :

— أى «خيمة»؟ هو قال لك إننى ذهبت إليه فى «خيمة» ؟ (ثم جزت على أسنانها فى غيظ) . . الكذّاب !

لا يدرى لِمَ استراح وهى تلفظ هذه الكلمة. وإن لم تصل إلى موضع الشك فى نفسه . . .

قال :

ألم تذهبى إليه فى المعسكر ، لترديه إلى أهله حين غضب منهم منذ عام ؟

قالت :

— نعم . لقد ذهبت . ولكننى لم أقابله فى «خيمة» لقد تمشينا بعيداً عن المعسكر فى الرمال !

آه . الرمال . وهذه كارثة أخرى . فما الفارق بين الخيمة والرمال ؟

قال :

— على أية حال لقد انتهينا . ستكونين له . وسيأتى هنا غداً. وسأخبر أهلك الليلة بانسحابى ، دون إبداء الأسباب ، وإن كنت قد تعهدت بأن أمهد لكما الطريق. لأنه هو متخوف من معارضة أهلك وأهله.

قالت منفعلة :

— يا سيدى لك أن تنسحب إذا شئت . ولكن ليس لك أن تقهرنى على شىء لا أريده . . . إننى أكرهه . لم أعد أتصور أن أراه . . .

قال وهو يتصنع السخرية والهدوء :

— يا «ستى» إنك تغالطين نفسك . فدعينى أؤدى واجبى !

قالت ، وقد شرقت بالدمع ، واختنق صوتها بالكلمات :

— تؤدى واجبك ! واجبك فى أن تتخلى عن الفتاة التى اعترفت لك بكل شىء . التى لم ترد أن تغشك أو تغش ضميرها ، التى وثقت بك فطلبت معونتك . تؤدى واجبك ! ولم لم يؤد هو واجبه فى هذا الأمد الطويل . أليس رجلا . لم لا يذلل عقبات نفسه فيدع لك أنت أن تذللها له ... الجبان !

نطقت بهذه العبارة كلها فى سرعة خاطفة ، ولم تكد تنتهى منها حتى بلغت أعلى طبقات النشيج ، وأخذ جسمها كله يرتجف ويهتز ... وبلا شعور ولا قصد ، وجد نفسه يقترب منها ، ثم يضمها إليه ، فتجاوبه فى استسلام ، وتدفن وجهها فى صدره بعنف . ثم إذا هو يرفع وجهها بين يديه ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وفى وجهها براءة معذبة . ثم لا يدرى كيف قد نسى كل شىء ؛ فإذا شفتاه

تهويان على شفتيها ، فتستجيب له بكل ما فيها ... ثم يستمعان إلى وقع أقدام ، فينتبهان !

* * *

قالت له — وقد أمنت واطمأنت ، وعاودتها روح الدعابة والشيطنة :

— كيف وجدته بالله ؟ !

قال :

— أتريدين أن أصدُقك ؟ أم ترانى أجامل ذوقك ؟

قالت — وقد فارقتها روح الدعابة، وبدا على وجهها الجد والاهتمام:

— لا . لا تقل لى عنه شيئاً . إننى أعرف عيوبه ، وأحب أن أقولها أنا . ولكنى لا أطيق أن يقولها لى أحد . وبخاصة أنت ! . . إنه تافه ، وساذج و « بلدى » فى ألفاظه وحركاته . . . ولكنه طيب . طيب جداً ومخلص . وفى خلال عامين كاملين ، لم يرد أن يضع يده علىّ فى مرة من المرات !

وأحس لهذه العبارة الأخيرة بوخزة فى شعوره . لماذا هذه الإشارة؟ لتنفى ريبته فى زيارة المعسكر ؟ ولكن من قال : إن هذا يزيل ريبته ولا يقويها ؟ ثم لم لا تطيق حتى اليوم أن تسمع فيه

قدحاً ؟ . . . ولكنها تعرف حقيقته ، وتصفه بالتفاهة والسذاجة ، وإن وصفته بالطيبة والإخلاص !

وانطلق المارد . وقام فى نفسه الصراع . . .

وأدركت هى ما يجول فى خاطره — ولم يكن شىء مما يدور فى نفسه يخفى عليها — فأرادت أن تأتيه من الناحية التى تعرف ضعفه فيها : من ناحية مروءته وناحية حبه .

قالت :

— أعرف أنك لم تعد تثق بى . معك حق . ولكن ألم أصارحك بكل شىء . ثق أنه لو كان هناك شىء ما أحجمت عن ذكره لك . إننى واثقة بك إلى حد لا تتصوره . فليس هناك ما يمنعنى من التصريح ؛ ولست أخفى عليك أننى أصارع نفسى فى بعض الأحيان ، وأننى أحس لهذا المخلوق التافه كثيراً من الإعزاز . لا تنس أننى أحببته فى يوم من الأيام إلى حد العبادة . . . كنت طفلة مجنونة وكان طفلاً ساذجاً ! ولا يزال ! ثم إننى لم أكن قد صادفت رجلاً ، لم أكن قد عرفتك . . . !

وتطلعت إليه بنظرة كلها نداء . . واستطاع أن ينسى فى هذه اللحظة هواجسه كلها ليستجيب . ولكنها بعد لحظة كانت تنتفض

مذعورة من بين يديه ، وكأنما مست من شيطان . وكانت تنفلت إلى حجرة السرير فتدفن وجهها فى الفراش . . . وتستسلم للبكاء !

إنه الصراع . . .

* * *

لم ينسحب ، ولم ينبئ أهلها بشىء ، ولم يحضر الشاب كذلك. وانقضت ثلاثة أيام . وكان هناك . وعلم أنها ذهبت إلى عيادة الطبيب لتأخذ حقنة «الكلسيوم» ، وكانت عيادته فى المنزل المجاور بالذات ، فلم يرافقها أحد إلى العيادة القريبة .

ثم حضرت . . . دخلت شاحبة الوجه ، تغرورق عيناها بالدموع . ثم انفلتت إلى حجرة النوم فأغلقتها عليها ، دون أن تعرج على حجرة الاستقبال ، حيث كان هناك بعض الزائرات . ولمحها تدخل ، فتبعها دون أن يخطر أمها وزائراتها .

ولم يكد يفتح الباب حتى وقع نظره على منظر مؤذ جداً : الفتاة منحنية على السرير فى اضطراب ، وجسدها كله يتقاص كالملدوغ .

قال :

— هل أدخل ؟

فأومأت إليه أن يجىء . ولم يكد يحاذيها ، حتى انتصبت من

انحنائها ، فألقت بنفسها عليه ، ودفنت وجهها فى صدره . وطوقته بذراعيها فى عنف ، وانطلقت تبكى ...

وقف حائراً بعض الوقت ، وتركها تهدأ بالبكاء . ثم لمع فى ذهنه خاطر غريب . قال :

— هل قابلته فى الطريق ؟

وفوجئت بكشف سرها على هـذا النحو اليسير . وكأنها استراحت لهذا الكشف أيضاً يجىء دون أن تقول . فقالت ، ووجهها فى صدره :

— نعم قابلته الآن !

قال :

— وماذا قال لك ؟ ولماذا تبكين؟

قالت :

— لقد طلب إلىّ أن أرد له صوره ورسائله ، ما دمت قد صرت إلى رجل آخر ، وانتهى كل شىء !

وهنا علا نشيجها وزاد اضطرابها ، فأحنقه هـذا . ولكن أدركته رقة عليها ، فقال فى نبرة تمزج بين الغيظ والرقة ، وفى لهجة مريرة مغلفة بقلة المبالاة :

— ألم أقل لك يا بنية : إنك تغالطين نفسك ، وإن الأفضل

هو التسليم والاعتراف ؟

فسكتت فجأة عن البكاء ، ورفعت وجهها إليه ، وقد علته مسحة من الجد الصارم ، وقالت ، وهى تمسح دموعها بالمنديل :

— فى غير هذه اللحظة يحسن منك هذا الكلام !

وكان ينبغى أن يسكت أو يثور . ولكنه وجد فى نفسه خفة وانطلاقاً . قال :

— إننى لأعجب لك يا بنيّة . أفى حضنى أنا تنشجين عليه ؟

قالت ، وقد خفت هى الأخرى وانتعشت :

— معك حق . ولكننى والله لست أفهم . إننى كلما وجدت نفسى فى ضيقة تطلعت إليك أنت ، وكلما خفت من شىء لجأت إليك أنت ، ولم أفكر فى أن ألجأ إلى أحد اخر : لا والدتى ، ولا والدى ، ولا هذا الذى كنت أبكى عليه منذ لحظة ! أقول لك الحق . إنى بنت مجنونة . إننى لا أعرف حقيقة اتجاهى . لا تضحك إذا قلت لك : إننى فى بعض اللحظات أتمنى أن يباح لى زواجكما معاً . أنت وهو . ليت ذلك كان ممكناً ! إننى أحبه فقط حينما أحس أن كل شىء بيننا سينتهى إلى الأبد ، وأحبك أنت عند ما أحس أننى سأحرم منك .

ومع أن هذا التصريح آذاه ، فإنه وجد نفسه يفكر ، ووجد نفسه يعطف على هذه الفتاة التى يتصارع الماضى والحاضر فى نفسها مثل هذا الصراع . فقال فى دعابة :

— وهو كذلك يا بنيتى . أنا قابل لهذا الحل الأخير ! ! !

قالت ، وقد عاودها الجد :

— لا . إننى لك . وليست هذه إلا جذوراً لماضٍ سخيف . ساعدنى على اقتلاعها من نفسى . قل إنك لن تتخلى عنى . قل . (وأمسكت بيده بين يديها فى إعزاز ظاهر) . . . فقال !

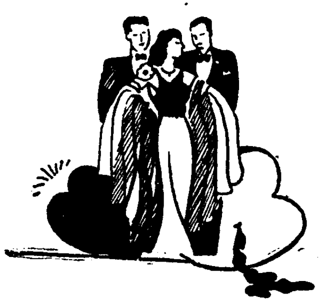

سخريات

أذن لها أبوها فى أن يرافقها إلى السينما فى حفلة الساعة الثالثة والربع ، بعد أن يتناول فى دارهم طعام الغداء .

وخرج من الديوان مبكراً فى هذا اليوم ، ليصل فى ميعاد مناسب . ووجدها قائمة على تحضير المائدة فى خفة ونشاط . واجتمع أفراد الأسرة حوله ، يحتفلون به ، وهم فى ابتهاج ظاهر وفرح واستبشار ، وتناوبوا جميعاً تقديم أطايب المائدة له — على الطريقة الشرقية التى تنم عن طيبة القلب وصفاء السريرة ، وإن كانت تضايق فى بعض الأحيان — واشتركت هى معهم فى هذا الإكرام ، بعد إحراجها بالفكاهات والنكات من أمها التى كانت الدنيا لا تكاد تسعها من الفرح !.. إنها سيدة طيبة عصبية المزاج ، مصابة بداء الكبد ، وتريد أن تفرح ، وأن تقشع الهم ، لأن الكدر يثير عليها الداء ، وهذه بنتها الفتاة الجميلة خطيبة شاب تثق فى أخلاقه ، ومستقبله طيب ، وهو ملحوظ المكانة فى الأوساط الأدبية والسياسية ، كما علمت من بعض الناس . والعائلة كلها تحسدها على هذا التوفيق . فما الذى يعوقها عن الفرح والبهجة والاستبشار ؟ !

وانفضت المأدبة ، وتناول الجميع الشاى والقهوة ، حسب أمزجتهم وعاداتهم . واقترب موعد السينما فتهيأت للخروج . وحينما خرجت من حجرة الزينة بدت وكأنها قطعة من الفتنة تتحرك ، فأحس فى نفسه إحساس الغنىّ الموفور الثراء ، وهو يطالع رصيده الضخم . . . أهذه كلها له ؟ وانتعشت كل ذرة فيه .

ونزلا إلى الطريق ينتظران الترام . وفى المحطة لمح ضابطاً شاباً يحوم حولها ، فبدا عليه التضايق ، وتحركت غيرته المنيفة ، ولحظت هى تغير وجهه ، فأدركتها خفتها الشيطانية ، وقالت عابثة :

— واحد ثان !

ولم يحس لهذه الإشارة بأية وخزة . فقد كانت عيناها ونبراتها تنطق بأنها له وحده فى هذه اللحظة ، وأن الأنثى المتباهية بفتنتها هى وحدها التى تتكلم فيها !

فانطلقت أساريره بعض الشيء ، وقال معابثاً هو الآخر

— من يدرى ؟ !

وأقبل الترام ، فركبا فى مقاعد الدرجة الأولى ، وكانا وحدهما . وأحس أنه يملك جوهرة ثمينة وأنه حارسها . وفتح الباب الفاصل بين الدرجتين ، ودخل كمسارى الترام . وهو رجل عجوز متهدم

يتحامل على نفسه بجهد . دخل مطرق الرأس فنظر — كأنما إلى أقدامهما وحدها — وقطع تذكرتين ، ومد يده بهما فى فتور . وفجأة رفع رأسه ، وانتفض كالمأخوذ ، وهو يحدق فى وجهها بشدة ، حتى لم ينتبه إلى اليد الأخرى التى تمد له النقود ، وتتناول تذكرتى الترام. ثم تنبه إلى موقفه فانسحب مسرعاً وأغلق خلفه الباب! ونظر هو إليها ؛ فإذا هى تغالب عاصفة من الضحك ، وعيناها تدمعان ، ويختلج جسمها كله فى اهتزاز . فقال :

— مالك ؟

قالت — فى تخابث فاتن :

— عاشق آخر ! أليس كذلك ؟

وكانت نكتة بارعة على غيرته الشديدة ، كما كانت زهو الأنثى بفتنتها التى تذهل حتى الشيوخ الفانين . وكانت لها هذه الجاذبية العجيبة حقاً . الجاذبية التى تكاد تتجرد عن « الجنس » لأن الكل يشتركون فيها : الشيخ والشاب ، والرجال والنساء حتى الأطفال !

وطالما لحظ مثل هذه الهزة التى انتابت الكمسارى الشيخ ، تنتاب الكثيرين والكثيرات ممن يلقونها فى كل مكان .

لم تكن ممن يحسبهن العرف جميلات . كان تكوينها الجسدى — إذا استثنينا صدرها الفاتن — ليس ممتازاً . ولكن كانت هناك فى وجهها جاذبية ساحرة . كانت خمرية اللون واضحة الجبين ، وفى عينيها وهج غريب تطل منه إشراقة مسحورة . وكان هذا الوهج أشبه شىء بالإشعاع الكهربائى المغنطيسى. ينبعث لحظة حين تشرق وتتوهج ، وينطفئ على التو حين تذبل وتنطفئ . وقد لا يمضى بين اللحظتين إلا مقدار ما تدير زر الكهرباء !

وكانت خطواتها القافزة الرشيقة الخفيفة ، وصدرها البارز الفاتن ، وهذا الإشعاع السحرى الغريب ، لا تدع مجالاً للفحص عن بقية تكوينها ، ولا تمهل الإحساس للتدقيق فى شىء منها

وكان يحسب نفسه يراها هكذا لأنه يحب ؛ ثم علم بالتجربة أن الجميع يقفون تجاهها هذا الموقف فى كل مكان .

* * *

وفى الطريق ازدحمت المقاعد بالركاب . وأقبلت فتاة لم تجد لها مكاناً ، فوقفت تترنح وتهتز فى الممر الضيق بين المقاعد ، فرأى هو أن يتخلى عن مكانه للفتاة . وبعد برهة لحظ على وجهها تغيراً ، فطأطأ يسألها : ماذا ؟

قالت هامسة :

— لا شىء . إنها جميلة !

قال — وأدرك ما تعنى وأحس له براحة لذيذة :

— من هى ؟

قالت :

— لا أعرف ، (وهزت كتفيها فى دلال زادها فتنة) .

قال مداعباً فى نشوة عميقة :

— هذه . وإلا الكمسارى العجوز ؟ !

ولم تستطع أن تغالب الضحك ، فظل جسدها كله يرتج ، وهى تختلس إليه النظرة الضاحكة بين الحين والحين !

***

ودخلا دار السينما ، وجلسا متجاورين ، وهو يحس بسعادة تفيض بها نفسه ، فيود لو يعانق الكون كله ، وتحركت ذراعه اليمنى فطوقت ظهر المقعد ، وانزلقت عنه قليلا فلمست ظهرها ، واختلجت هى اختلاجة خفيفة ثم استقرت ، ونظرت إليه نظرة متوددة راضية ، تمازجها الفتنة والإغراء . ولو كان النور مطفأ لصنع شيئاً آخر ، ولكن آدابه التقليدية لم تسمح له إلا بنظرة أودعها كل ما فى قلبه من أشواق .

ثم أطفئت الأنوار ، وبدأت « الجريدة » وتحركت ذراعه قليلا ، فسرت فى جسده هزة ، ومالت هى إليه قليلا فصافح شعرها خده ، وأحس بالنشوة فثمل ، وطافت برأسه الرؤى الغامضة فى الفردوس النعسان !

وانتهت الجريدة ،وأعقبتها الرسوم المتحركة بمواقفها المضحكة ، فانتفضت ضاحكة كالطفلة ، وهى تتابع القصة فى توفز ظاهر ، رده من حلمه المهوّم إلى يقظة طافرة ترقص فيها الحياة . وأعيدت الأنوار فأحس نقلة عنيفة من عالم إلى عالم ، وفرك عينيه — لا يدرى أمن النور المفاجىء أم من النقلة المفاجئة — ثم أغمض عينيه بيديه واستغرق فى أحلام !

ثم بدأت الرواية !

بدأت عادية فى أول الأمر ، فعاد هو يضع ذراعه فوق ظهر المقعد ، ثم يحركها رويداً رويداً ، ثم يضغط بها ضغطاً خفيفاً ، فتستجيب له فى بطء ، ينتهى بهما إلى حيث كانا فى الفردوس النعسان !

ولكن يا للشيطان !

إن القصة لتأخذ فى طريقها ، فتجرى حيث تجرى قصتهما بالذات ! إنها قصتهما ذاتها معروضة فى شريط !

وأجفل عند الخطوات الأولى ، ولـكن ذراعه تحركت حركة غير إرادية ، فضمتها إليه بشدة . ويبدو أنها لم تكن قد لحظت بعد سبب رجفته ، فاستجابت إليه فى لين وإغراء . ولو فى غير هذه اللحظة لارتكب الحماقة التى يشمئز منها طبعه حينما تقع عليها عينه فى دور السينما خاصة ! أما الآن فهو يصحو على مس الأشواك !

ولم تكن إلا دقائق حتى توالت المناظر والمشاهد واللافتات على الشاشة ، فإذا هما وجهاً لوجه أمام قصتهما فى الصميم ! قصتهما بكل ما فيها من دروب ومنحنيات ومخاوف وشكوك . قصتهما . وهاهى ذى الشاشة تواجههما بكثير من الهواجس والمشاهد التى كانا يهربان من مواجهتها فى الحياة !

ولم يحاول فى أول الأمر أن ينظر إلى وجهها ، ولـكنه فيما بعد اختلس نظرة ليرى قسماتها أمام هذه المواجهة القاسية ، فإذا هى تختلس إليه نظرة هى الأخرى ، فتقابلت النظرتان ، ثم ارتدتا سريعاً إلى الخفض والانكسار . وأحس كلاهما بكل ما جاش فى نفس صاحبه ، فأدركه الدوار !

وفى هذه اللحظة وجد ذراعه تتراخى قليلا فترتمى على ظهر المقعد ، ونظر فإذا رأسها المشرئب المتطلع يهوى ويسقط ،

ويتخاذل متنها المنتصب ، فيتقوس فى انحناء !

وهم أن يدعوها إلى مغادرة السينما ، ولكن ريقه كان قد جف ، فلم يدر لسانه بكلمة ، واستمر ينظر إلى الشاشة ، وهو يحس الاختناق !

وبينما كانت القصة تسير كانا يحسان شيئاً فشيئاً بانفراج الهوة بينهما ، وتقطع الأواصر التى تربطهما ، وفى كل خطوة كان يتكشف لهما المصير المحتوم ، ويشعران أن علاقتهما منخوبة ، وأن السوس ينخر فى صميمها . وفى نهاية الرواية كانت البطلة قد عادت إلى حبيبها الأول . وكانت العلاقة بينهما قد انتهت كذلك . لقد أحسّا أن ما تم على الشاشة هو الذى تم فى الحياة !

وأضيئت الأنوار فأحس بالدوار ، ووقف يستمع إلى النشيد الملكى ، بينما كانت لاتزال جالسة فى خور ، فنبهها بغمزة فوقفت ، ثم تحركت الجموع للخروج فاندسا فى غمار الجماهير ، ونسيا أنفسهما لحظة إلى الباب ، وخرجا من السينما صامتين ، وركبا الترام صامتين . وعادا إلى الدار فى همود .

كان كلاهما يحس أنه لا يجد نفسه ولا يجد صاحبه ، وأن كل سبب بينهما قد انبتّ ، فلم تعد بينهما نقطة اتصال .

وكان كلاهما لا يجد ما يقوله ، ومع هذا كان يود أن يقول

شيئاً يقطع به هذا الصمت البغيض ، الذى يثقل لحظة بعد أخرى ، ويخنق أنفاسهما كالتنين . ولـكنهما فى النهاية لم يجدا كلمة تقال .

كان خطيبها أمام أهلها وأمام الناس ، وكان أهلها لا يعلمون مما بينهما شيئاً ، ولا يجرؤ هو ولا هى على مكاشفتهم بشىء ، فكانا يصارعان الـكارثة وحدهما ، ويتظاهران بالمرح والسعادة فى جميع الأحوال !

أما فى هذه المرة فقد أعياهما أن يتظاهرا بشىء ، بل أعياهما أن يتكلفا الابتسام الذى كان يسعفهما حين يفجؤهما أحد من أهلها وهما فى زحمة الصراع .

ودخلا صامتين هامدين ، يتجسم فى محياهما الهم والقنوط .

قالت أمها :

— أعوذ بالله ! مالـكما هكذا مكشرين ؟

وهنا فقط وجد كلمة يقولها :

— لقد كان « الفيلم » عنيفاً جداً .

قالت :

— ولماذا تشاهدان هذه الأفلام الرديئة ، فى هذه الفترة الحلوة من حياتكما ؟ !

* * *

الفترة الحلوة !

هنا لم يطق صبراً على المواجهة ، وخاف أن تخونه الـكلمات ، وأن تفضحه السمات ، فانفلت إلى حجرة النوم . ولم يكن عليه من بأس فى أن يرتاد من حجر الدار ما يشاء . لقد كان فى حاجة لأن يستلقى ويستريح ، كالرحالة المجهد المـكدود من سفر طويل .

لم يخلع ملابسه ، ولم يخلع حذاءه ، فما كانت به بقية من قوة يؤدى بها هذه الحركات . لقد كان حسبه أن يلمح السرير ، لينحط عليه كالجدار المنهار .

وانقضت دقائق ، ومناظر الرواية تتوالى أمام عينيه ، بينما ترن فى أذنه كلمات الأم الطيبة القلب ، عن هذه الفترة الحلوة من الحياة . وينفلت زمام أعصـــابه ، فلا يستطيع أن يضبطها لمواجهة هذه المفارقات .

وفى هذه اللحظة تصل إلى سمعه من حجرة الجلوس نغمة البيانو .

إنها تعزف ، إنه لحنه المحبوب ، لحنه المسحور .

لقد سمع هذا اللحن من قبل ، وسمعه كثيراً ، سمعه من تلك الفتاة نفسها ، سمعها تعزفه فاستعاده واستعاده ، وظل يستعيده فى نشوة عجيبة ، حتى قالت له فى دعابة ساحرة : لن أعيده مرة أخرى إلا لقاء أجر معلوم !

لم يكن يعرف اسم اللحن ولا عنوانه ، ولم تكن تعرفه هي كذلك . كان أستاذ البيانو قد حفّظها إياه ، دون أن يذكر لها عنوانه . فما قيمة الاسم والعنوان ؟

إن هذا اللحن المجهول كان يستجيش ضمائره ، ويحرك خواطره ، ويثير فى حسه النشوة والحلم واللهفة والانسياب . كان يصور نفسه فى تلك الفترة التى لم يكن يعيش فيها على الأرض ، ولم يكن يحس إلا أن الحياة حلم ظافر سعيد .

لقد كان يحب ، يحب هذه الفتاة التى تعزف ذلك اللحن . وإنها لتعزفه بيدها وقلبها ، وبأعصابها وملامحها . كانت هى اللحن ذاته فى صورة مجسمة . ولم تكن قد برزت من بعد تلك الأشواك ثم ها هى ذى تعزفه مرة أخرى ...

وإنه ليسرى إلى نفسه رويداً رويداً ، وينسكب فى أعصابه رفيقاً رفيقاً ، وإن نفسه لتهدأ وتطمئن ، وإن أعصابه لتسكن وتستريح ، وإنه ليثمل ، ثم ينتشى ، ثم يرف فى جو شاعرى شفيف ، وإنه لينتفض بعد لحظة خفيفاً نشيطاً ، وإنه لينفلت إلى حجرة الجلوس ملهوفاً مشتاقاً ، حتى إذا اقترب استرق السمع والنظر ، فإذا هى ، هى حلمه الجميل ، هى حوريته الهاربة . هى ، ولا شىء سوى الماضى العزيز ، والثقة العميقة ، والحب المفتون .

هى . وإنه ليطوقها من الخلف فى لهفة . فتبدو كأنما ذعرت للمفاجأة . المفاجأة التى كانت تنتظرها ولا شك بغريزتها العبقرية ، غريزتها الفطنة التى توحى إليها فى هذه اللحظة بالذات بالعمل المفرد الوحيد ، الذى يجدى فى مثل هذا الأوان .

هى . وقد وجدها . ووجد نفسه ، ووجد فيها ما يقال . وإن الحب ليعود اللحظة يحلم ؛ وإن الحياة لهى هذا الحلم الظافر السعيد !

العاصفة

جاء فى اليوم التالى . وفى نفسه شعور آخر .

لقد حدث أمر جديد . لقيه صاحب له ، وهو زميل للضابط الشاب ، فقال : إننى سأحدثك فى شأن يهمك ، واغفر لى تطفلى عليك ، فأنا أؤدى واجبى الذى أراه .

ولفتته هذه المقدمة ، وتوقع شيئاً . قال :

— متشكر . قل ما تريد .

قال :

— لقد عرفت أنك خطبت فتاة من الروضة ؟

قال :

— نعم !

وأحس بشىء من الانقباض .

قال :

— إن لم تكن كتبت كتابك ، فأحب أن أطلعك على شىء !

وشعر بما يشبه العرق البارد . وقال :

— لا . لم أكتب كتابى . فقل ما تشاء !

قال : أنا أعرف أن هذه الفتاة صديقة زميل لى اسمه «ضياء»

وتكلف قلة المبالاة فقال :

— كيف علمت أن هذه هى تلك ؟

قال :

— لقد رأيتها معك أمس فى السينما ، وكنت قد رأيتها معه من قبل فى المعسكر ، فلما سألته عنها اليوم قال : إنك خطبتها ، ولأن لى بك صلة ، رأيت من الواجب علىّ أن أخبرك !

قال ببرود ظاهر :

— متشكر ...

وتركه ومضى !

* * *

العجيب أنه لم يشعر فى هذه اللحظة بالألم المنتظر لمثل هذا البلاغ ! لقد خيل إليه أن الأمر انتهى فيما بينه وبينها . أحس أن ليس هناك ما يربطه بها . نسى الماضى كله فى لمحة ، وقرر أن تقف صلاته بها عند هذا الحد ، ولم يشعر بأسف كبير على هذا القرار .

قال : إنها رخيصة لا تستحق كل هذا الاهتمام ، وإنها إحدى فتيات

الجيل اللواتى يعرفن هذا الشاب وذاك ، ويعبثن هنا وهناك ، عبثاً بريئاً أو غير برىء ، ثم يجدن فى النهاية الزوج المطلوب ! إنها فاتنة — ولا شك — ولكن ما يعنيه هو من الفتنة ، وهو لا يريد العبث بها ؟ لقد أرادها له زوجا ، لأنه حسبها شيئاً ثميناً عزيزاً ، لا تتداوله الأيدى ، ولا يحصل عليه إلا من هذا الطريق ، فقرر أن يغالب ظروفه الخاصة ، وأن يضحى بالكثير ليحصل على هذا الشيء الثمين . أما الآن ...!

ووجد نفسه يأخذ الترام إلى هناك : لينهى الأمر فى يسر وسهولة ، وبلا كبير اهتمام .. وظل هذا العزم قويا فى نفسه حتى واجه الدار . وهنا أحس بالصراع !

ولو واجهته فى هذا اليوم كما واجهته صباح يوم الاعتراف ، ولو نظرت إليه عند ما لقيته نظرة الأمن والاستسلام ، لوضعت حداً حاسماً لهذا الصراع ، ولعادت إليه ثقته المفقودة ، وإعزازه العميق . ولكنها لقيته جامدة ، وابتسمت ، ولكنها ابتسامة سطحية ؛ وأجلسته فى حجرة الجلوس ، ثم غابت عنه بعض الوقت ، وجاءت أمها فسلمت عليه متهللة ، فلم يبادلها هذا التهلل إلا بتكلف وعناء

ثم جاءت هى أخيراً ، ومعها الشاى ، وعرف أن غيبتها كانت لهذا الغرض ، إلا أن ذلك لم يسكب الرضى فى نفسه ، ولم يشعره الارتياح . وخيم على الموقف جو من الكمد ، لم يخفف منه ما كانت تحاوله الأم من ترحيب به واهتمام .

وأحس أنه مطعون فى كرامته ، وجال فى خاطره إحساس التعالى على الموقف ، ونفض يده منها ، كرد حاسم على اتجاهها مرة لسواه !

وكانت الأم قد انصرفت لشئون المنزل ؛ فقاده هذا الخاطر الشرير أن يقص عليها قصة الصباح ...

وفى نهايتها كانت كالتمثال الشاخص . قالت فى لهجة آلية :

— والآن لا يجوز أن تشقى بى ، وأن تهان من أجلى (وخلعت خاتم الخطوبة ووضعته برفق على غطاء البيانو)

قال ، وقد عاوده الإشفاق والإيثار :

— هل توافقين اليوم على ما عرضته عليك من قبل : أن أخبرهم بما يريد خطيبك السابق ، وأن أمهد له الطريق ؟

قالت فى استسلام :

— افعل ما تراه ... كله عندى سواء !

* * *

وبعد قليل حضر الوالد ، فأحس أن هناك شيئاً . وسأل : ما الخبر ؟ ومع أنه كان قد قرر كل شىء ، إلا أنه أحس بالعجز عن مصارحتهم بالموقف هكذا فجأة . فراح يحاوله من بعيد . . . ومع ذلك لم يذكر إلا أن هنالك ظروفاً خاصة لا تجعل من الممكن أن يرتبطا ، وأنه قد تفاهم مع « سميرة » على إنهاء كل شىء فى سكون ، وأنه وحده يحتمل تبعة هـذا الموقف ، وهى بريئة مما صارت إليه الأمور !

ولم يكن هذا الإجمال ليرضى أحداً . فالمسألة جد ، والناس قد عرفوا ، وموعد العقد قريب . وثارت الأم ثورة عصبية عنيفة لم تمالك فيها أعصابها ولا لسانها . وانقلبت هذه السيدة الطيبة الوديعة من حال إلى حال . قالت له : لقد قال الناس من قبل عنك إنك لست جاداً فى رغبة الزواج ، وإن ظروفك الشخصية تمنعك ، ولكننا لم نصدق ، وها أنت ذا تسبب لنا الفضيحة !

وأحس لهذه الكلمات بوخز الطعنات ؛ ولم يخفف من وقعها ما حاوله أبوها من الهدوء ، وضبط النفس ، والتجمل ، والاعتذار عن زوجته بمرضها وعصبيتها .

وحاول هو أن يدافع عن نفسه ، فيفشى السر الذى أودعته

الفتاة صدره ؛ ولكنه تراجع حينما سمعها تنشج فى الحجرة المجاورة ، وتذكر استسلامها وتهالكها . وفجأة برزت هى من باب الحجرة فى اندفاع جرىء تقول :

— يا ماما . الذنب علىّ أنا ، وهو لا ذنب له ، فلا تشتميه !

وكأنما صب على الحريق الهائل ماء بارد . فتخاذلت الأم لحظة ، وبهت الوالد وحملق فى الفتاة . أما هو فارتجت نفسه كلها ارتجاجاً ، واندفع فى حماسة يقول :

— لا . لا . لا تصدقوها . إنها بريئة . وأنا وحدى المسئول !

وهنا ضحك الوالد ضحكة مريرة ساخرة وقال :

— ما هى الحكاية ؟ قولوا لنا . هل نحن فى مسرح تمثيل ؟!

قال هو :

— دعونا ننفرد ، لننهى أمرنا معاً بعد قليل .

ولم ينتظر إذناً منهم ؛ فقد كانوا جميعاً مذهولين . واندفع إلى حجرتها التى اعتكفت فيها ؛ فوجدها لا تزال تبكى ، ووجد فى نفسه تغيراً ظاهراً ؛ فحاول أن يربت عليها ، وأن يشملها بعطفه الذى تجده منه فى مثل هذه الظروف . ولكنها كانت جريحة . قالت له :

— لا تحاول شيئاً . لقد انتهى كل شىء . قل لهم الحقيقة ،

لقد ضقت صدراً بهذا النفاق الذى نحاوله ، ومن حقهم أن يعلموا ؛ ولقد كنت أعددت لك رسالة أطلعك فيها على أنى لا أجد نفسى ، ولا أتبين اتجاهى ، وأنى أحس بثقل ساحق على ضميرى ، وأنا أقفك هذا الموقف ، دون أن أخلص لك فى هذه الفترة من الصراع . ولأنى لم أقو على أن أقول لك هذا كتبته لك فى رسالة !

وأحس أن هذه الكلمات تنسكب فى كيانه قطرات من السم . ولكنه تمالك فقال :

— وأين هى الرسالة ؟

قالت :

— لقد قلت لك كل ما فيها .

قال :

— أحب أن أراها مكتوبة .

فترددت هنيهة ،ثم دفعت إليه برسالة مطوية كانت تدسها فى صدرها ، وجلست بعيداً عنه ، بينما راح يفض الرسالة ويقرؤها ، وتتوالى على سيماه أشتات من الانفعالات حتى أتى عليها جميعاً . ثم دسها فى جيبه ، دون أن تعارض هى فى إبقائها له .

* * *

كانت الرسالة هى اعترافها الأول مكررا ، ولم يكن فيها جديد . ولكنه أحس بنكأة فى الجرح ، ربما كانت أشد من الجرح نفسه : « إنك برىء ونبيل ، رجل تشرف أية فتاة بأن يكون تاجاً لحياتها ، ولكننى أنا . أنا بنت شريرة «ملوثة» ، وأنت مخدوع فى قيمتى ؛ فيجب أن أنبهك إلى أنك مخدوع...الخ » .

وجرحته كلمة « ملوثة » جرحاً شديداً . ومع أنه كان يعلم ماذا تعنى بها ، إلا أن معناها الردىء قفز فى هذه اللحظة إلى خاطره ، فأحس بالطعنة الرجيمة .

قال :

— والآن . يا فتاتى العزيزة . ماذا تريدين ؟

قالت :

— لا أرى إلا رأياً واحداً . قل لهم كل شىء . وليكن ما يكون !

قال :

— ولكننى أخشى العاقبة ، ولا تطاوعنى نفسى على أن أفشى لك سراً .

قالت فى اندفاع :

— إننى أنا التى تريد

وخيل إليه أنها تريد بهذه الفرقعة أن ترتد إلى حبيبها الأول . وأن تنبيه هو عنها فى مصارحة أهلها بحقيقة الحال ، وأنها قررت فى نفسها أمراً . وهنا ثارت كوامنه ، وارتد إليه شعور الصباح ، وفقد كل تسامح ورحابة . وكان مظهرها فى اللحظات الأخيرة يشبه أن تكون متهللة بالموقف الأخير ، فكان كل أولئك مدعاة لأن يغادر الحجرة إلى حيث ينتظره الجميع .

* * *

ومع أنه ترفق فى كشف الموقف ، وتجنب مواضعه المحرجة ، وجاء للموضوع من جانبه البرىء : جانب خطبة الفتى الضابط للفتاة ، ثم تحمس فى الدفاع عن موقف شاب وشابة يتحابان . . . إلا أن المفاجأة كانت أشد مما تحتمله أعصاب الجميع .

ثارت العاصفة ، وانقلب البيت كله على الفتاة وانتبذت هى من وجودهم مكاناً قصياً .

أحس الوالد أنه طعن فى شرفه وكرامته ، وأحست الأم أنها تواجه الفضيحة ، وتخسر رابطة وشيكة . وران على الأطفال ذعر صامت وهم يرون ولا يعلمون ! ولم يبق إلا هو ، يدافع عنها فى حرارة ، وينفى ما علق بذهنهم عنها من انحراف !

ثم خيم على المنزل صمت كصمت القبور ، وانزوى كل فى ركن لا ينبس بحديث .

وتقدم الليل ، وهم بالرواح كالمعتاد ، فأمسكت به وجلة ، وتوسلت إليه أن يبقى حتى الصباح . قالت : لمن تتركنى هنا ؟ إننى منبوذة غريبة كما ترى ، وليس لى أحد سواك . لا هنا ولا فى الدنيا كلها ... قل : إنك لن تتركنى ولن تروح !

ولم يكن فى حاجة لكل هذا التوكيد . لقد كان هو أشوق منها إلى تمضية كل دقيقة بجانبها . كان فى نفسه مشاعر غريبة : شعور العطف والإشفاق ، وشعور اللهفة والحرمان ، وشعور الغيرة والغليان ، وشعور التسامى والإيثار ، ومالا يحصى من هذه الأحاسيس مجتمعات .

وكان كل من فى البيت مستريحاً لأن يقضى ليلته هناك . كان هو الصلة الوحيدة بين نفوسهم جميعاً ، بعد ما قطعت الصدمة كل ما بينهم من الصلات .

* * *

بات يسمع أنفاسها فى الحجرة المجاورة ، فلم يكن بينهما سوى حائط رقيق فيه باب مفتوح ، وكان يسمع تنهداتها فى جوف الليل ، ويكاد يسمع وقع دموعها فى سكون الظلام !

وكان يراها قريبة منه جداً ، بعيدة عنه جداً . كان يراها ملء يديه ، ثم ينظر فإذا يداه منها فارغتان !

وأوقد المصباح فى جوف الليل ، وراح يكتب شعراً :

بينى وبينكِ خُطوة لكنْ عوالمنا بعيدْ
ويداىَ فارغتان من كنز به غَنِىَ الوجودْ

ثم تغالبه دموع قاهرة ، فيطفئ النور ، وينكفئ فى سريره يغالب الدمع ما استطاع .

وفى الصباح كانت غائرة العينين ، صفراء غبراء ، كأنما انسلت من مقبرة . وكان مسترخى الجسم ، مهدوداً ، مكدود الأعصاب .

قالت :

— كيف قضيتَ ليلتك ؟

قال :

— كما قضيتِ ليلتك !

قالت :

— يرحمنا الله !

ثم اتجهت إلى مرافق البيت ، وبعد قليل جاءت تدعوه . قالت :

— لقد سخنت لك ماء لتغسل وجهك ورأسك ، فإنك

لجهد ، والجو شتاء ، وللماء الدافئ قيمته فى مثل هذه الأحوال . اقترب أصبّ لك الماء !

ولكنها لم تدعه يغسل وجهه ورأسه . لقد دبت فيها حيويتها الكامنة من خلال الذبول ، فراحت تدعك له عينيه بالصابون ، وتدس أصابعها فى شعره تخلله ، وإنها لتقول فى دعابة ساحرة :

— لتكن أنت ابنى اليوم ، كما كنت بنتك بالأمس يا أبتاه !

فشل فى إقناع أهلها بالرأى الذى ارتآه ، وهو يستروح فى هذا الفشل ريح الانتصار ، وفشل فى إقناعهم ببراءتها التى عادت له ثقته فيها ، وفشل فى استعادة الرضى عنها بطبيعة الحال ، واستمرت تلقى منهم الوخز والإعراض ، وتسمع منهم الغمز والإيلام ، وتجد نفسها بينهم فى غربة وإذلال .

قالت له :

— لقد وقع ما كنت أتوقع ، ولست أصلح لك الآن رفيقة حياة . أحس فى أعماق نفسى أنى لست فى مستواك . ولن ألحق بذلك الآخر لأن كرامتى تأبى علىّ هذا ، كما يأباه شرف هؤلاء الساخطين ! ولن أنتحر لأن الانتحار جبن وعار . ولن أطيق الحياة فى هذا البيت بعد الآن !

قال :

— وماذا اعتزمت إذن يا بنيتى ؟

قالت متألمة :

— لن أعدم وسيلة للحياة الشريفة . سأشتغل خادمة فى أحد البيوت . وإننى لماهرة فى التدبير المنزلى كما تعلم !

وأحس بنفسه تتذاوب عطفاً عليها ، وألماً لها ، ووجداً بها .

وقال :

— لقد نسيتِ أن لك بيتاً آخر ، يرحب بك ضيفة لا خادمة .

قالت وهى تهتز من الانفعال :

كلا ! إن قبلتنى خادمة ، فخذنى إليك منذ الآن !

ضمها إليه فى رفق ، وربت عليها فى عطف ، وقبل جبينها فى حنان ، وقال :

— كلا يا بنيتى . بل — إذا سمحتِ — رفيقة حياة .

قالت مغالبة للنشيج المكتوم :

— أوتقبلنى بعد كل ما كان ؟ (واستسلمت للبكاء) .

* * *

لبس ملابسه ، وخرج مع والدها .

وقال له الوالد بعد أن غادرا الدار . وكأن حادث الأمس كان كابوساً انتهى ؛ فعاد كل شىء جديداً :

— دع كل هذا الهراء الذى تقوله « سميرة » والذى تقوله أنت أيضا . إننا ننتظرك فى موعد الغداء !

قال :

— لا أستطيع الغداء ، فلابد أن أعود إلى الدار ، فالبيت مشغول على مبيتى الذى لم أتعوده . ولكننى سأحضر فى آخر النهار .

وعاد فوجد اتفاقاً بين الجميع على تناسى العاصفة ، وعلى أن تسير القصة كما كانت من قبل تسير . وعاد للفتاة إشراقهـــا ، وبدت كالناقهة من وعكة ، تستنشق نسيم الحياة فى لهفة وارتياح . وأحس أنها خلصت له بعد هذا الإعصار ، وأن جرحه الذى أدمته الأشواك قد اندمل وطاب . وخيم على الجو نوع من الود العطوف ، والطيبة النقية ، والسلم والوئام !

أنثى ...

باتت سهراته ليلية فى دارهم ، فما كان يستطيع مقاومة الإغراء الذى يقود قدميه كل يوم إلى هناك . ولم تكن كل أويقاتهم صفواً ، منذ أن برزت فى حياتهما الأشواك . ولكن شيئاً ما لم يكن ليستطيع أن يقف هذا التيار الجذاب .

كان ينتظر الموعد اليومى ملهوفاً ، ويذهب إلى هناك فيجدها كذلك ملهوفة . وقالت له فى يوم تأخر عن موعده : « كم خفت ألا تأتى الليلة . إننى هنا غريبة بين أهلى ، بل غريبة فى الحياة كلها حين لا أراك » .

وكانت غريبة حقاً . فأهلها جميعاً طيبون . نفوسهم بعيدة عن التعقد والتركيب ، وهى عقدتها الأزمات النفسية والأشواك ، وعقدتها صحبته ومناقشاته ، وعقدتها القراءات التى كان يزودها بها ويحضها عليها ، وعقدتها التوجيهات النفسية التى كانت تتلقاها عنه وهما فى السينما أو فى غير السينما .

ولم تكن هى الغريبة وحدها فى هذه الدار ، فلقد كان هو أيضاً

غريباً فيها ، فإذا غابت عن المجلس لحظة شعر بالفراغ ، وكثيراً ما كان هو وإياها يشعران بالوحشة فى حضرة هؤلاء الناس الطيبين فينسحبان إلى حيث ينفردان !

وافتقدها ليلة فقام يبحث عنها فى حجرات الدار . ودخل حجرة النوم ... وكانت مفاجأة . مفاجأة لم يتهيأ لها من قبل أبداً .

كانت الليلة مقمرة ، وللحجرة نافذة يطل منها القمر ، فيضيئها ذلك الضوء القمرى الشفيف . وكانت واقفة دون أن توقد المصباح اكتفاء بهذا الضوء الفضى الشفيف . كانت واقفة بجوار السرير تبدل « فستانها » وحينما دخل الحجرة كانت قد خلعت ولم تلبس ... ووقع نظره المرة الأولى عليها بالملابس الداخلية ... وكانت لحظة رهيبة !

كانت تربيته الأولى فى بيئة محافظة متطهرة ، وكان قد انصرف فى حياته إلى نوع من الجد لا يسمح له بالعبث ، وكان الشعر والفن قد صانا خياله من التلوث ... وكان هـذا كله يبعده عن المرأة ، ويصيبه بلون من الربكة والاضطراب حين يلقاها وجهاً لوجه ، أياً كانت طبقتها وسنها .

فلما ووجه مفاجأة بالفتاة التى يحبها ، شبه عارية ، كان ذلك مضاعفاً

لخجله وارتباكها . ولكن عينه تقع على منظر فاتن فى ضوء القمر الشفيف ، ولليل المقمر جوه ، وللوحدة المغرية جوها . إنما هو فى الوقت ذاته يشعر لهذه الفتاة بلون من القدامة ، وهو كذلك غير مستعجل ولا متسرع ، فهى له ، وستصير كلها إليه .

. . . كل هذه النوازع المتشابكة فى لحظة واحدة جعلته يقف برهة مسمراً . ألف جاذب يجذبه إلى الاقدام ، وألف دافع يدفعه إلى الاحجام . وبوغتت هى فارتبكت كذلك ، وبدلاً من أن تلبس الفستان الثانى ، انكفأت على نفسها ، وطأطأت رأسها ، وحنته على صدرها ، فكانت فى وضعها الجديد أشبه بتمثال فاتن فى وضعه الفنى الجميل !

وأخيراً غلبه ماضيه كله فتراجع ، وهو يتمتم : لامؤاخذة . . . !

* * *

ومضت فترة طويلة لم تعد فيها إلى المجلس ، وقدم بعض الزائرين والزائرات من أقاربهم ، وهم كثيراً ما كانوا يحضرون هذه الليالى ، استطلاعاً لحال الخطيبين ! فلقد كان الحسد العائلى والفضول النسوى يدفعانهم للحضور . فتضيع الليلة فى تكلفات سخيفة وأحاديث تافهة . . . ثم ينصرفون .

وأحست هى أنهم قد حضروا ، فساد المنزل جو غير جوه . ولكنها قدمت باهتة منطفئة ، يغشاها شىء من الانكسار .

وعجب هو لهذه الظاهرة ، وعزاها إلى أنها خجلة مما كان !

وجلس متضايقاً ، فسرى الضيق منه إلى الآخرين . وبعد فترة هم بالانصراف تخلصاً من ثقل الجو ، فبدا على الزائرين الارتياح ، لما أحسوه من ضيق لا يبشر بخير !

وأمسك به أبوها وأخوها ، وتشددت أمها فى دعوته للبقاء . ونظر إليها هى فلم يجدها تدعوه ليبقى ، فلم يستجب للدعوة ! وعندما وضعت يدها فى يده وهو ينصرف أحس ببرودة فى روحها وفى أناملها أيضاً ، فخرج ضيق الصدر مغموماً !

* * *

ومضى يوم لم يجد فى نفسه نشاطاً ولم يذهب للزيارة كالمعتاد . وفى اليوم التالى كان جالساً فى مكتبه كالعادة ، حين رن جرس التليفون ودعى للكلام .

قالت :

— أنت اليوم تعرف صوتى ولا بد !

وتهلل وجهه ، وانتفضت كل ذرة فيه ، وأجاب :

— طبعاً . لقد حفظته !

قالت :

— ألا تحضر حتى تستدعى بالتليفون ؟

وارتبك لحظة ثم أجاب :

— لا . لقد كنت متعباً فى ليلة الأمس .

قالت :

— متعب أو غضبان ؟ أظنك ستأتى الليلة على كل حال !

قال :

— طبعاً سأحضر الليلة كعادتى !

وسلمت وسلم ، وانقطع الحديث ، وانطلقت فى كيانه موجة من النشاط .

***

وفى المساء كان يقصد إلى الدار ، وليس فى خياله إلا صورتها المرحة الوثابة ، وإلا صوتها الشجى الطروب . واستقبلته متهللة ، وقبل أن يجتاز الممر وراء الباب — وكانت يدها لا تزال فى يده —

قالت :

— كنت الليلة خائفة ... ولكم تمنيت لو تجىء فى الظلام !

وأحس أن الدنيا لا تسعه من الفرح ، فضغط يدها بحرارة ، فتأودت وهى تشد يدها من يده ، وبدت فتنة جارفة لا تحتملها الأعصاب !

وانطلقت بعد قليل إلى البيانو توقع عليه اللحن المسحور ، فغمرت روحه نشوة عجيبة ، وانسربت خواطره تراود أحلاماً ذهبية ، وأحس بسعادة تضىء روحه بنور وهاج ، وتحلق به فى واد من التيه بعيد .

وبعد أن استعادها مرة ومرة ، على عادته كلما سمع اللحن المسحور ، أعلنت فى دعابة ساحرة أنها لن تعيد العزف ، ونهضت واقفة ، وانفلتت من الحجرة كالحورية الهاربة ، أو كالغزال الشرود .

وكان معه فى الحجرة أبوها وأمها وأخوها الشاب ، ورآها تذهب نحو مرافق المياه ، فتظاهر بعد برهة بأنه ذاهب إلى المرافق — وكانت له الحرية فى أن يذهب ويروح حيثما يشاء — وكان يفصل المرافق عن الحجرات ممر طويل ضيق . . .

وفى منتصف الممر قابلها راجعة . ولا يذكر أنه رآها كما رآها

هذه الليلة . كانت متوهجة يخيل إلى الرائى أنها تتوقد ، كما يخيل إليه أن كل نفسها منافذ ، تتلقى منها الأضواء والأصداء ، وتشع منها الطاقة والحرارة !

ونسى المنزل ومن فيه — وهم على مقربة منهما — وراح يضمها إليه فى شوق عارم ، ويهوى على شفتيها فى لهف حرور ، وأحس أنها تتذاوب فيه ، وتتفانى بكاملها ، وأنها تستجيب له بكل ذرة فيها ، وأنها تتلاشى وتتداخل وتتهاوى .

ومضت فترة لم يكن يعى فيها شيئاً ، ولكنه لا ينساها أبداً !!! مضت هذه الفترة ، وإذا هى تثنى جيدها إلى الوراء وقوامها فى يديه ، فتواجهه بنظراتها الجاهرة ، وتقول فى دعابة ساحرة :

— الرجل وراءنا ! والله أناديه !

ولم يكن يملك إلا أن يضمها إليه فى عنف ، وهى تسكب فى نفسه أحلى رحيقها المذخور بهذه النظرة وتلك الفتنة . . ثم تملصت منه ، وانفلتت تجرى . . . وعاد هو إلى الحجرة نشوان ولكنه تعبان ! عاد فجلس ، ولم يلحظ أحد منهم عليه شيئاً ، ولو تنبه أحدهم إلى عينيه لرآهما تقطران نشوة وسكراً .

***

وغابت عنهم فترة طويلة ، ثم عادت وقد هدأ كل هذا النشاط ، وسكنت كل هذه الفورة ، وبدت مطفأة خابية .

وصدمه هذا الانقلاب صدمة عنيفة . وخيلت له أوهامه أن هذا ندم منها على ما وهبت له ، وأنها لا تزال تعد نفسها لحبيبها الأول ... كانت كل معرفته بالمرأة من الأوراق . . . !!!

ووجم ، وثقل عليه الجو ، فشاع فى المجلس كله الوجوم ، وبخاصة وقد تقدم الليل ؛ وداعب عيونهم النعاس .

وانتهز فرصة انفرادها بعد قليل فى الممر ، فراح يفسد كل شىء . قال لها :

— يبدو أنك نادمة على ما أعطيت .

وهزت رأسها : أن نعم . فلم يحاول أن يفهم إلا أنها تعنى ما تقول !

قال :

— تريدين أن تكونى له خاصة !

وجرح هذا كرامتها ؛ فلم ترد أن تتقهقر .

قالت :

— أى نعم !

وغاظه ذلك جداً . ولم يحاول أن يفهم غلطته فى سوق هذا الحديث إليها الآن .

قال :

— لن أعيدها مرة أخرى . . . اطمئنى !

قالت فى برود :

— تحسن صنعاً !

وأفلت منه قياد نفسه ، ولم يعرف كيف يدير الكلمات . قال :

— لا يزال أمامك أن تختارى . فالفرصة بعد لم تضع !

وتظاهرت بعدم المبالاة . وكانت تلك عادتها حين تجرح كبرياؤها . وقالت :

— والفرصة أمامك كذلك لم تضع ، وتستطيع أن تتصرف بكامل حريتك !

وهنا فقط أحس أنه أخطأ فى إدارة الحديث من أوله ، وأنه استجاب لهواجسه التى لازالت تختلج فى ضميره ، وأنه دفع بها إلى مكابرة لا مفر لها منها .

فقال :

— لندع هذا الحديث الآن :

وعاد إلى الحجرة يستأذن للخروج . ولم تحضرهى لتسلم عليه . فدعتها أمها ، فحضرت متثاقلة ، ومدت إليه يدها باردة ، فسلم وانصرف ، وملء نفسه ظلام .

العذراء الأم ...

... عاد إلى داره موحش النفس مظلماً كئيباً ، تجثم على صدره الكآبة ، ويغشى نفسه الوجوم ... وفى أعماقه سؤال غامض لا يسمح له بالظهور والوضوح : تراه أخطأ طريقه فى هذا المشروع كله؟ وأن هذه الفتاة ليست له ، لا هى ولا فتيات القاهرة جميعاً ؟ إنه يتطلب فى فتاة أحلامه مفارقات لا تجود بها الحياة . يتطلب الحورية القاهرية المغمضة العينين . يتطلب الفتاة العذراء القلب والجسد ؛ فى زى قاهرى ، ويتطلب فيها الحساسية المرهفة والشاعرية المتوهجة ... ومع هذا كله طيبة القلب وصفاء الروح ..!

تراه أخطأ الطريق فطلب الحورية العذراء فى بنت من بنات القاهرة . أم تراه أخطأ الطريق من أوله ، فطلب حياة زوجية لا تصلح له بحال ؟

وفى مثل هذه الهواجس ، التى كان يصاحبها فى نفسه هم ثقيل وهمود كئيب ، قطع الطريق الطويل بين دارها وداره

حتى إذا وصل لم تكن فيه بقية من النشاط للصراع والتفكير ، فاستلقى مهدوداً فنام !

وأصبح الصباح فإذا هو يجد له نفساً جديدة غير التى نام بها . لقد صحا وفى نفسه صفاء هادىء وصوفية شفيفة ... إنه يعطف على الفتاة عطفاً هادئاً رفيقاً. لقد صارعت أشواكها وقاومت ماضيها ، ولقد ألقت بنفسها بعد هذا كله إليه ، مجردة من كل ستار ، عارية من كل رداء . وبالأمس ألقت بنفسها كلها إليه ، واستسلمت لأحضانه أنثى كاملة تستسلم للرجل الذى تختاره ، فما باله لا يزال بعد هذا كله يذكرها بالأشواك ، ويحيطها بالشكوك ، ويحرجها بالاتهام ؟ لها الله !

وأحس عندئذ بالصفاء الهادىء يفارقه ، وبالصوفية الشفيفة تتخلى عنه ، وأجدّت له هذه الخواطر شوقا جارفا شديداً ، ورأى نفسه يعبر عن هذا الشوق بشعر حار ملهوف .

وحينما جاء موعده اليومى كان قد أنفق كل رصيده من الصبر ، فانطلق إلى الدار ترف كل جوارحه هوى إليها ، وصعد السلم قافزاً لاهثاً . فلما كان أمام الباب وقف يلتقط أنفاسه قبل أن يضغط زر الجرس ...

وجاءت الخادم ففتحت الباب ، وبيدها الطفل الصغير — أخو الفتاة — وكان يحبه حباً جماً لخفة دمه ، ورشاقة حركته ، وحلاوة حديثه . وكانت الخادم خارجة به للرياضة فى متنزه قريب

فتناوله بكلتا يديه ، وقبله قبلة حارة عنيفة ! ثم سأله عن « سميرة » فقال الطفل فى شىء من التخابث :

— عايزها ؟

— أيوه

قال :

— كانت تبكى ...

ولا يدرى كيف استقبل هذه الكلمة ؟ تألم لها ما فى هذا شك. ولكنه شعر بارتياح غامض ... تبكى ؟ إذن فى نفسها من حديث الأمس بقية . وإن بكاءها ليؤلمه ، ولكن أولا يدل هذا على أن المسألة فى نفسها باتت جداً ، وأنه يؤذيها ما يثور فى نفسه حولها من شكوك ؟

وتنبه لهذا الشعور فى نفسه فعده شعوراً أثيما ! أو يريحه أن تتألم الفتاة لمجرد استيثاقه أن الأمر بينهما قد صار جدا ؟ ! ثم يزعم أنه يحبها ؟ يحبها أو يحب نفسه ؟ ومع ذلك يصف نفسه بالإيثار !

وبينما كانت هذه الخواطر تجول فى نفسه كان يندفع فى الدار مناديا :

— سميرة . سميرة . أين أنت ياسميرة ؟

ولقيته أمها فسلمت عليه ؛ وفى قسماتها شىء من الانكسار ، ونادت بدورها عليها :

— سميرة . تعالى . إنه جاء !

وأحس من هذا أن عدم مجيئه اليوم كان متوقعاً ؛ وأنه قد دار بشأنه حديث . وعاوده الشعور المبهم المختلط ... وأقبلت سميرة .

ونظر فإذا هى مكدودة ، تغيم عليها سحابة من الأسى . ولكنه قد حضر برصيد نفسى ضخم من الحماسة والطلاقة . فراح يجلو هذه الغاشية بنشاطه وطريقة حديثه والتفاتاته وحركاته ، واستجابت الأم لهذا فبدا عليها الانشراح .أما هى فكانت فى نفسها بقية لا تزال ، ولكنها كانت خيراً مما لقيها أول مرة ...

وطلب منها أن تعزف له دوره المحبوب ، ولكنها تمنعت حتى كادت أمها تغضب ، فاستجابت لها ، وكان عزف هذا الدور يكفى لأحداث جو آخر .

وخرجت الأم — وقد راقها الجو الجديد — لتشرف على الشاى والفاكهة !

ولما اختلى بها قالت له فى رزانة :

— يا سامى . إنك مظلوم معى . ومن واجبك أن تبعد عن طريقى . إنه ملىء بالأشواك !

وحاول أن يطمئنها بشدة ، فأخذ يدها بين يديه ، وضغطها مربتاً وقال :

— أرجو يا سميرة أن تغفرى لى اندفاعاتى ، فأنا رجل جرح مرة ، فدعى لى فرصة تندمل فيها جروحى ، كما تركت لك فرصة تنتزعين فيها أشواكك .

وأدركت ما فى لهجته من صدق وعمق فقالت :

— معك حق . معك حق . ولكننى مع هذا بدأت أخاف!

قال لها فى توكيد ظاهر :

— لا . لا تخافى . ثقى إننى أثق بك فى أعماقى ... وإلا ما وجدتنى بجانبك إلى هذه اللحظة .

قالت :

سأقول لك الحق : أنا مجرمة .

عندئذ فاضت نفسه رقة لها وعطفاً عليها ، وراح يطمئنها على ثقته بها ، ويبرئها مما ترمى به نفسها . وبعد فترة على هذه الوتيرة من الحديث ، عاد إليها اطمئنانها ، وارتدت إليها بشاشتها ، وتوهجت عيناها بذلك البريق الجذاب العجيب ، وخيل إليه أنه غسل ما فى نفسها وغسل ما فى نفسه ، وأنهما يرفان طليقين فى سماء الحياة .

وكان الليل قد أقبل ، وخيم الظلام على الحى — فقد كان ذلك فى عهد الظلام التام أيام الغارات — ولم تحضر الخادمة بالصبي .

وبدأ قلب الأم يقلق . ثم أخذت تتساءل عن سبب غيبة الصبي والخادمة . . . ولم يمض وقت طويل حتى انقلب التساؤل حيرة . وتطورت الحيرة لهفة ، شملت الأم والفتاة ، وشملته معهما بطبيعة الحال .

وحين بلغت الساعة الثامنة ولم يعودا انقلب الجو إلى قلق لا يطاق ، وسيطرت المخاوف السوداء على قلوب الثلاثة ، ولم يبق شك فى أن حادثاً سيئاً وقع للصبي والخادمة ، أو للصبي وحده ، فخافت الخادمة أن تعود .

وفى مثل هـذه الحالات تصنع المخيلة أوهاماً متلاحقة تخلخل الأعصاب .

وكان عليه هو أن يتماسك ليمسك بالرأتين فى حالة معقولة ، ولكنه فى قرارة نفسه كان يحس بالخطر فقال :

— سأخرج للبحث عنهما فى الطريق إلى المتنزه . . .

ووجد من أعينهما تصديقاً حاراً على الاقتراح ، فخرج ، وراح يقطع الطريق إلى المتنزه متلفتاً محدقاً فى الظلام ، متمنياً أن يعثر على

الصبي الذى يحبه ، والذى تحبه فتاته كأمها على السواء . ولكنه عاد بعد أن قطع الطريق مرتين دون أن يعثر عليهما .

وكانت عودته نذيراً بانطلاق الأوهام السود التى كانت تصدها الأم ، ولا تعترف لها بالوجود .

قالت :

— انتهى ولدى . اسم الله عليك يا سوسو ! وانهل دمعها المكبوت ، فشرقت مثلها الفتاة بالدموع ، وبدا فى عينيها ألم جازع مفزوع .

ووجد نفسه يقول :

— لا لا . لا قدر الله . ومع ذلك — فمن باب الاحتياط — سأذهب إلى قسم البوليس للسؤال !

وكان مجرد ذكره للسؤال فى القسم كافياً لتثبيت مخاوف الأم وتأكيدها ، فصرخت صرخة خافتة :

— ولدى . . .

وقالت الفتاة فى وله جازع :

— أروح معك !

وتجاذبته — فى لحظة — عوامل شتى : خوفه عليها من الخروج

وهى على هذه الحالة ، وخشيته عليها من الصدمة لو كان هناك شيء ، ورغبته الجارفة فى أن تكون معه ، وشعوره العميق بلذة هذه الصحبة أيًّا كانت الأحوال !

وقال :

— الدنيا ظلام . وأنا أقوم بما تريدين .

قالت فى لهفة مجنونة :

— لا . لا . أروح معك .

وانطلقت معه بملابسها المنزلية لم تغير شيئاً ، وانطلقا إلى الشارع يجوسان خلاله فى خطوات متعثرة ، وكان فى الطريق أكوام من حجارة الرصف هنا وهناك ، يتعثر بها المارة فى الظلام ، وبين خطوة وخطوة كانت تعثر ، فتضع كفها على كتفه اتقاء للسقوط ، فيحس لهذا بلذة خفية لا يحجبها قلقه على مصير الصبى ! ثم تقوم فى نفسه معركة كلما أحس هذه اللذة الخفية فى وسط الآلام التى تستشعرها الفتاة !

وقطعا الطريق فى خط متعرج بين طوارى الشارع ، يتفرسان فى الوجوه والأجسام ، كلما رأيا أشباحاً فى الظلام ، وكل خطوة تقودهما معاً إلى اليأس ، وتثير فى نفس الفتاة الألم وفى نفسه القلق ، حتى وصلا إلى قسم البوليس .

ووجد هنالك ضابطاً شاباً فى دور التمرين بالقسم . فتقدم هو إليه يسأل ، وتخلفت عنه قليلا .

وأخذ الضابط يراجع دفتر الأحوال . وكانت هى قد تقدمت فى هذه الفترة فوقفت بجانبه معتمدة بذراعها على كتفه فى تهالك . وقلب الضابط بعض الصفحات ثم قال :

— سعيد . . .

ولم يكد يتم حتى شهقت شهقة والهة مكتومة ، وكادت تسقط ، فألقت بنفسها عليه معتمدة بكلتا يديها .

وأتم الضابط الاسم ، فاتضح أنه ليس أخاها . ولزيادة التأكيد سأل هو الضابط عن عمر هذا المذكور فى « المحضر » . فلم يعد هناك شك فى أنه ليس الصبى المفقود .

ونظر إليها الضابط الشاب فاتقدت عيناه . ثم أراد أن يعابث — دون تقدير الموقف — فقال :

— اطمئنى . يظهر أنك تحبينه ! وضحك ضحكة فاترة سمجة ، ثم أخرج من مكتبه علبة وقدم لها شيئاً من الحلوى . فاعتذر هو شاكراً فى برود :

وسأله الضابط عن اسمه وعلاقته بالصبى .

فلما سمع اسمه بدا عليه اهتمام خاص ، وقال : حضرتك الذ
تكتب فى الصحف ؟ أنا أعرف هذا الاسم .

— قال ، وأحس بلذة عميقة :

— نعم !

وقال الضابط باهتمام ظاهر :

— نسأل فى المحافظة ، ففيها تجتمع حوادث الأقسام . وقا
بنفسه ليكلف عامل التليفون السؤال ، وعرض عليهما أن يستري
على كرسيين .

ولكنهما شكراه ، وتابعا خطواته إلى التليفون ، وجاءت
الاستعلامات مطمئنة ، فاستراحا إليها . ثم استأذن من الضابط
شاكراً ، فصافحه هذا بحرارة ، وهو يقول :

— تستطيع أن تسألنى بعد ساعة بالتليفون . أو أعطنى
العنوان وأنا أخبرك إن وجدنا شيئاً . وخرجا معاً بهذا الاطمئنان
السلبى . ولكنه هو خرج مستريحاً لكل ما كان !

* * *

وعادا إلى الدار ، وهى متعبة من السير والقلق ، ولكنهما وجدا
المفاجأة هناك . . . لقد عاد الصبى والخادمة . كانت حديثة عهد
عندهم ، فضلت طريق العودة ، ثم اهتدت أخيراً إلى الطريق ..!

وفى اندفاعة جارفة راحت تحمل الصبى بيديها ، وتضمه إليها
فى لهف حار ، وتمطره بالقبلات كالسيل المنهمر ، وتستريح هنيهة
ثم تعود . . . فلما كادت تشبع قال هو معابثا :

— كفى ! لقد بدأت أغار !

قالت :

— تغار ؟ وأنت مالك ؟ هذا حبيبى سوسو !

قال وذهنه خال من كل فكرة سابقة :

— وهل أغار إلا لأنه حبيبك ؟

وفجأة تغير وجهها لهذه الكلمة ، وانطفأت الشعلة المتوهجة كما
ينطفئ المصباح ، وبدا عليها الكد والإجهاد . وقالت فى نبرة
كسيرة خافتة :

— ماذا تعنى ؟

وكان لا يعنى شيئا . ولكنه أدرك ما جال بخاطرها فى هذه
اللحظة ، فقال :

— لا أعنى شيئا . إنك مجنونة . خذى كلامى ببراءة ،
ولا تحوجينى للشرح أو التحفظ ، فأنا أكره التحفظ والتكلف .

وعلت نبرته وهو يقول :

— يا مميرة . منذ اليوم دعينا نعيش بلا تحفظ . كما خلقنا الله !
وردت إليها هذه اللهجة الحاسمة طمأنينتها ، ولكنها لم ترد إليها توهجها ، فظلت ساكتة فترة من الزمان .

* * *

وذهبت تعنى بعشاء الصبي من اللبن والفاكهة ، ولم يلبث إلا قليلا حتى رنق الكرى عينيه فنام .

نام بين يديها . فانحنت عليه بحنان ظاهر ، ورفعته إلى كتفها فى رفق ، وربتت على ظهره فى حنو ، وتحركت نحو السرير ببطء .

ونظر إليها وهى تنيمه . فإذا مشهد فاتن ، لم تقع عليه عيناه : هذه القسمات الحانية فى ذلك الوجه الجميل ، وهذه النظرات الرحيمة فى تينك العينين الساحرتين ، وهذه الحركات الوانية فى جوارح الجنية الهاربة ، وهذه القبلة المديدة من تينك الشفتين الفاتنتين . . . إنها الأمومة الكاملة فى نفس الحورية العذراء ، حورية وأم .

هذه هى المفارقة التى لا تجتمع إلا فى الخيال ، تتحقق أمامه فى العيان !

وفى تلك اللحظة كان يحلم بالعش المسحور . وكان له طفل ، تنيمه الحورية الهاربة ، فى هذا العش المسحور . . . !

الماضى الحى

كانت تزوره فى الدارمع أختها وأخيها ؛ ولم يكن هو وحيداً ، فقد كان يعيش مع شقيقتيه الفتاتين . وقد انعقدت أواصر الصداقة القوية بينها و بينهما . ولم يكن هناك حواجز تحول دون زيارتها .

ودخلت حجرة مكتبه ، وأخذت تتفرس فى مجموعة كتبه ، وتقلب فى بعض الصفحات ، ثم اتجهت إليه وهى ترفع رأسها فتبدو فاتنة رائعة ؛ وقالت فى لهجة الطفل المتودد : اختر لى كتابا أقرؤه من كتبك .

كانت تعلم غرامه بالكتب ، وحبه للقراءة ، ورأيه فى المرأة التى لا تقرأ . وكانت فى الوقت ذاته مولعة بالمكايدة تفتن فيها افتنانا ، فكانت حريصة على أن تبدو فى معظم الأحيان، وهى تغيظه بارتكاب ما يكره واجتناب ما يحب . ولكنها كانت تنسى هذه المكايدة فى بعض الأحيان فتبدو على طبيعتها ؛ تريد أن تعجبه وتروقه ، وتصوغ نفسها فى الصورة التى يحب . وكان طلبها هذا الكتاب تقرؤه تودداً منها تقصده ، ويفطن هو إلى مغزاه !

واتجه إلى القسم القصصى فى مكتبته ، فهو أولى الأقسام بأن يجتذب فتاة إلى القراءة ، وكان قد أهدى إليها من قبل بعض القصص فادعت أنها لم تقرأها . ولكن لسانها كان يخونها فتشير فى أحاديثها معه إلى ما ورد فى هذه القصص . فيضحك مرة من هذا فى سره ، ويضحك مرة منه فى جهره ، فتحاول الإنكار بعد فوات الأوان !

ولا يدرى إلا الشيطان ، لماذا وقعت يده على قصة « الماضى الحى » المنقولة إلى العربية عن « جى دى موباسان » ... كل قصة إلا هذه القصة كان معقولا أن يوجه إليها نظرها فى ذلك الحين . ولكن هذا هو الذى كان !

أتراها قوة شيطانية تلك التى دفعت بيده إلى هذا الكتاب ؟

أتراها نفسه الباطنة التى ما زالت إلى هذا اليوم ترتاب ؟

أيا كان الباعث فقد اضطربت يده حينما وقع نظره على العنوان ! ووقع نظرها عليه أيضاً !

قال فى تردد :

— لا . خذى غير هذا (وهم أن يعيده إلى موضعه فى المكتبة).

قالت وقد أثار العنوان أولا ، وتردده ثانياً ، ما فى نفسها من استطلاع :

— ولماذا ؟ هات هذا الكتاب !

قال فى إصرار هذه المرة بعض الشىء :

— لا . . . غيره خير منه .

— قالت وقد زاد تشبثها به :

— لن أقرأ إلا هذا الكتاب !

ولم يعد بد من أن يسلمه إليها . وقد أحس فى أعماق نفسه بغم عظيم ، وقلق دفين !

***

كانت القصة قصة سيدة أخطأت . كان لها ولدان لهما والدان! ولكنهما يحملان اسم أحدهما وحده . وقد حسبت أن الماضى قد مات ، وحسب الناس أن « بيير وجان » شقيقان !

كانت سيدة محترمة ، بريئة ! فوق مستوى الشبهات ! . . . أما الماضى فقد كان سراً لا يعلمه أحد . ومن أين لأحد أن يعلمه ، وصاحبه الآخر قد مات . وهى لن تكشف عنه بطبيعة الحال ؟

لقد استراح ضميرها لهذا كله ، بعد أن غيب فى عالم النسيان ، وعاشت مع زوجها وولديها وكأن لم يكن ما كان !

ولكن هذا الماضى يبعث فى يوم من الأيام . إنه حى لم يمت بعد عشرين عاما أو تزيد . . .

إن « بيير » يكشف فجأة أن «جان» ليس أخاه الشقيق . إنه ابن ذلك الرجل الآخر الذى عاش صديق الأسرة ، ومات فأوصى بثروته كلها للولد الأصغر « جان » حيث لم يسأل أحد يومها : لم هذا الإيثار ؟

ويعنف المؤلف كل العنف — وهو يكشف هذا السر للابن الأكبر — فيمزق ما بينه وبين أمه من رباط . إن هذه المرأة البريئة المظهر قد خانت أباه . إنها أمه ، وهذه هى القسوة الكبرى فى المأساة ! وإنه ولدها ، ولكنها تحس وقع نظراته وشبهاته — التى تتحول إلى يقين — كما تحس بالأشواك المسمومة . إنه ولدها ، وهذه هى القسوة الكبرى فى المأساة !

* * *

قالت له فى هذه المرة عند أول لقاء :

— لقد قرأت القصة !

وأحس أن كلماتها تقطر مرارة ، وأنها تتماسك وكيانها يرتجف وينهار .

قال :

— إنها قصة عنيفة . . . لقد أشفقت أن أقرأها مرة أخرى لأنها مؤذية !

قالت مستطلعة :

— ولماذا تؤذيك ؟

قال وقد أراد أن يتجاهل كل شىء :

— إن المؤلف قد رسم موقفاً أليماً بين الأم والابن يهز الأعصاب .

قالت :

— أو تحسب كل من يقرؤها يحس فيها ما أحسست !

وفهم أنها تضرب على وتر خاص ؛ فقال :

— لا أشك فى هذا وإن تفاوتت أحاسيس الناس .

قالت وقد بدت فى صوتها رعشة تغالبها :

— لماذا أعطيتنى هذا الكتاب ؟

قال :

— لأنك أصررت على أخذه .

قالت :

— ولكنك اخترته من أول الأمر !

قال :

— لم أختره . لقد وقع فى يدى مصادفة ، فأشفقت منه على أعصابك ، لأنى جربته فى أعصابى ... (ثم أضاف) : منذ أعوام !

تطلعت إليه ثم قالت :

— متى قرأته ؟

ووجدها فرصة يبعد بها الشبهة فقال :

— أقول لك منذ أعوام .

قالت متخابثة :

— أولم تعد إليه مرة أخرى فى هذه الأيام ؟

قال :

— كلا لم أطق أن أعود إليه مرة أخرى . بعض الصور تطبع فى النفس فتحاول الهروب منها ، ولكنها تتراءى لها كلما أبعدت عنها . فلا يحتاج الإنسان لمراجعة الأصل أبداً .

ووجد نفسه يندفع فى وصف تأثير القصة فى أعصابه ، وهى

تصغى إليه بشدة ، وتتراقص فى عينيها ظلال معركة . فأمسك عن الكلام ، وأمسكت مى كذلك ، وسادهما صمت ثقيل .

***

دخلت كلمتا « الماضى الحى » فى قاموسهما بعد هذا اليوم . فما تأتى كلمة « الماضى » حتى تلحق بها على الفور « الحى » وحتى تبعث فى خيالهما صورة خاصة . وتبعث فى حياتهما جواً خاصاً . ولم يفلح بعد ذلك فى أن يعيد الثقة إلى نفسها مرة أخرى . كانت تصارع وكانت تريد أن تكون له . ولكنها باتت تخشاه !

القطيعة

مرت الأيام . واقترب الموعد المحدد للعقد ، وأخذ الجميع يستعدون له باهتمام ، واستقر الرأى على أن تقام حفلة شاى بدل المقصف ، ونزل مع أخيها فاتفقا مع مشرب من مشارب الشاى على الحفلة ، ودفع هو « العربون » كما راح ينتقى علبة الملبس الخاصة بالعروس . وجلسوا ليلة يختارون أسماء المدعوين ، وشاركت هى فى إعداد البيان ، وأملت أسماء صديقاتها ليحضرن اليوم الموعود .

ونزلت مع أمها فاشترت عدداً من الفساتين — من بينها فستان الليلة الخاص — وكانت شقيقتاه وشقيقتها كذلك قد اشترين الفستان الخاص بالسهرة من لون واحد ، وذهبن إلى خياطة واحدة للتفصيل ...

كان كل شىء فى الظاهر يندفع إلى الأمام . ولكن تياراً آخر مضاداً كان يسير فى الخفاء . كان شعوره بأنها صارت له ، وأن حياتها سترتبط بحياته يوقظ فى خاطره الوسواس والهواجس ، وكانت الأشواك التى خيل إليه أنها اقتلعت أعمق مما قدر لها فى الضمير .

وكان شعورها بأنها صارت له وأن حياتها ارتبطت بحياته يوقظ فى خاطرها المخاوف والمخاطر ، بعد أن كشفت له عن موقفها وجردت نفسها من كل سلاح .

كان الشك يوغل فى نفسه بجانب الحب ، أو بسبب الحب ، فكان حريصاً ملهوفا على أن يتأكد أنها خلصت له إلى النهاية .

وكانت كبرياؤها قد استيقظت فهى تريد أن تتأكد من استعادة مركزها فى نفسه ومن انتهاء شكوكه فيها .

وكان كلاهما فى سبيل الحصول على هذا اليقين يرتكب فى كل يوم حماقات صغيرة ، أخذت تحيل الحياة إلى جحيم .

* * *

كان قد اختار لها علبة ملبس صغيرة من الفضة الخالصة ، وأقبل بها فرحا بحسن انتقائها . ولكنها لم تهش للعلبة ، ولم يبد عليها أنها تستقبلها استقبالا طيباً ، وبدلا من أن يفكر فى أن نوع العلبة قد لا يكون أعجبها ، فكر فى أن المناسبة كلها لا تفرحها !

واغتمت نفسه لهذا الخاطر ، وأوّله بما كانت تعترف له به فى إبان الصراع : إنها حينما تحس فقدان أحدهما يكون هو العزيز عليها ، فراح يرقب كل حركة من حركاتها ويؤوّلها هذا التأويل ، وتفلت

منه تلميحات ونظرات لا يفوتها مغزاها فتزداد انقباضاً ، وتوجس نفسها خيفة ؛ وتحاول أن تتأكد بتجربة جديدة تزيد الموقف سوءاً وتعقيداً !

وقدم يوما إلى الدار ، وكانت تتهيأ مع جارة لهم لزيارة صديقة ، وكانت فى مثل هذه المصادفات تتخلف فلا تخرج ، أما فى هذه المرة فحاولتها تجربة لتعرف مدى احتماله لها فى حياتهما .

ومضت فى زيارتها ...

وفسر خروجها وتركه فى المنزل بأنها لم تعد تعنى به ، فآلمه هذا الخاطر ألماً شديداً لم يستطع معه البقاء فى الدار . فلما عادت بعد فترة قصيرة لم تجده ، وانهالت عليها أمها تأنيباً ؛ فزادها هذا التأنيب شماساً ونفوزاً .

ولكن الاستعدادات لليوم المحدد سارت فى طريقها المرسوم! وجاء فى اليوم التالى ونفسه محملة ، وحينما استقبلته لمحت مايختلج فى نفسه ؛ فزادها ذلك هما وذبولا .

ثم انفرد بها وراح يعاتبها فى خشونة على فعلتها بالأمس ؛ فلم تتراجع ، ولم تدركما غريزتها بالحل المناسب . وكانت قسوة التأنيب الذى لقيته من أمها العصبية تملأ نفسها مرارة ، إلى جانب مخاوفها

من الحياة مع رجل لم يعد ماضيها يهيئ لها فى نفسه احتراما ، وزادها عتابه الخشن خشية ومرارة ، فعاندت عناداً شديداً .

أما هو فكان يحس أنه ضحى بما فيه الكفاية ، وأنه احتمل ما فيه الكفاية ، وأنه أنفق رصيده كله من العطف والتسامح والإيثار فى أيام الصراع والعلاج ، وأن له الآن — وقد صار زوجا — أن يتلقى الجزاء تقديرا لموقفه وعرفانا بسماحته ؛ وكان هذا الجزاء الذى يرتجيه ، أن يجد بجانبه شريكة خالصة له متوددة إليه .

وأما هى فكانت تخشى أن تتودد كما يريد ؛ فيحمل ذلك منها على ذلة الاعتراف ، ومهانة الانكشاف ، وكانت تقيس مكانها عنده باحتماله لتدللها ، فى وقت لم تعد له طاقة لاحتمال الدلال !

فلما اشتدت المناقشة بينهما إلى حد لم تبلغ إليه من قبل أبداً ، خرج من الدار مغضباً ، وسار فى الطريق ثائراً . . . وكانت ذقنه طويلة ، وشعوره بطولها يسبب له عادة مضايقة ، ويفسد مزاجه كثيراً ، فدخل دكان حلاق ، وهو لا يدرى تقريباً . وفى الفترة التى قضاها فى الحلاقة كانت نفسه تصفو ، وكان تسامحه يعاوده ، وأحس فى نفسه بقية من رصيد ، فرأى أن يبذله للمرة الأخيرة .

وكانت قبل هذه المشادات قد أظهرت رغبتها فى مشاهدة أحد

الأفلام الجديدة... ورأى نفسه ينساق مسرورا إلى دار السينما فيقطع ثلاث تذاكر ، له ولها ولأخيها الصغير ، الذى كان يصاحبهما فى معظم الحفلات ، لحفظ المظاهر فى أنهما لا يختليان بعيداً !

وأحس وهو يمسك بهذه التذاكر الثلاث أن كوة من الرجاء تنفتح فى خاطره ، وقدر أن هذه المحاولة اللطيفة سترد إلى الجو صفاءه لأنها مفاجأة لا تنتظرها ، وقد خرج بعد المشادة غاضبا . . . !

ودخل الدار متهللا نشيطاً فوجدها لاتزال منزوية كئيبة. وقد قاطعت كل من فيها ، فلم تتأثر نفسه بانقباضها ، وابتسم وقال لها :

— تعالى أحدثك على انفراد :

قالت :

— لقد شبعنا من الحديث على انفراد !

وصدمته هذه المقابلة . ولكنه وجد فى صدره سعة لعرض المفاجأة !

وكانا قد وصلا إلى حجرة الجلوس ، فأخرج من جيبه الأوراق الثلاث فى تمهل ، ثم أسرع وهو يبسطها على ظهر البيانو ، وقال فى ابتسامة ودود :

— هذه تذاكر الرواية وسنشهدها غداً !

ولو تلقت مفاجأته كما انتظر لانتهى كل شىء ، فقد كان على استعداد فى هذه اللحظة لأن يغفر لها مشاداتها جميعاً . ولكنها لم تدرك غرضه ، فقالت فى استخفاف :

— تحسبوننى طفلة ، تغضبوننى وتوبخوننى ، ثم ترضوننى بقطعة من الشيكولاته ؟

وانصب عليه ماء بارد ، وصغرت فى عينه جداً ، وتلفت فإذا آخر شعاع فى نفسه يخبو ، وآخر فسحة فى صدره تضيق ، وقال فى خشونة :

— لم تفهمى قصدى . إنك صغيرة .

وسمعت أنه يقول لها « حقيرة » ، فارتاعت ، ورفعت صوتها منفعلة : أى نعم حقيرة ! حقيرة . حقيرة . هذا ما كنت أتوقع . معك حق . هذا ما كنت أحس ، إنك تحتقرنى فى ضميرك ، انكشفت الآخرة ولم يعد شىء مخبوءاً . . .

وانطلقت من الحجرة غاضبة وهى تبكى فى شبه تشنج ، وأقبلت أمها فأدركتها رقة عليها بعد ما أنبتها بالأمس تأنيباً شديداً ، وحسبت أنه هو الآخر يقسو عليها بعدما احتملت منها كل قسوة ، وغلبها حنان الأم ، وراعها مشهد ابنتها تتعذب عذاباً ظاهراً ،

فأدركتها عصبيتها كذلك، وانطلقت توجه إليه اللوم فى عنف شديد، قالت :

— إنه لا يكون هكذا يا ابنى ! إن الحياة لا تستقيم على هذا النحو . ولو كانت جارية يعذبها سيدها ما احتملت أكثر من هذا ، كل يوم عتاب ، وكل يوم مناقشة ، وكل يوم تأنيب ، أنا من جهة وأنت من جهة . يا رحمة للبنت المسكينة ! سأنظر حين يجيء أبوها . إن هذه الحال لم تعد تطاق !

وفوجيء هو بهذه الثورة من هنا ومن هناك فى اللحظة التى لم يبق له فيها رصيد للاحتمال ، وأحس إحساساً قاطعاً أكيداً عميقاً أن كل شيء قد انتهى ، وأنه لم تعد صلة تربطه بها !

وغلا دمه واشتد انفعاله ، وانطلق لسانه :

— وهو كذلك . فأنا الآخر لم أعد أحتمل شيئاً . كل شيء يحسن أن ينتهى !

وكانت هذه الكلمات كفيلة بأن تشعر الأم أن الصلة تتقطع ، فزادها هذا ثورة وهياجاً . وإذا كانت تتقى من قبل شيئاً ، فإنها لم تعد تتقى . وكذلك استمعت الفتاة إلى كلماته وأحست من لهجتها أن كل شيء قد انتهى . فندت من فيها كلمات كانت الطعنة المجهزة الأخيرة . قالت :

— الحق على أنا التى قبلتك ، بعد ما حذرنى كثير من الناس ! ولم يعد هناك مجال لشيء . فهذه بالذات لن تكون امرأته فى يوم من الأيام ... !

* * *

وجاء الوالد . وعرضت أمها الأمر ، وبدت له جفوة فى حديث والدها وأخيها الأكبر يحاولان سترها فتبدو ، ولأول مرة سمع أخاها يتهمه فى لهجة جافة بأنه لم يكن فى الحقيقة جاداً فى مشروعه ، وأنه كذلك كثير الشكوك والمخاوف إلى درجة لا تطاق !

وأدركته روح السخرية بالموقف كله ، فأعفته من الردود العنيفة التى كانت تجيش بها نفسه ، وأحس فى نفسه باشمئزاز من الطبيعة البشرية ، ومن أهل القاهرة خاصة . وكانت نشأته فى الريف تخيل له أن الناس هناك أحسن أصلا ، وأكثر مروءة ، وأنقى ضميراً .

وعلى أية حال فقد اتفق الجميع على اليأس من المشروع ، ولم يكن بقى على الموعد إلا ثلاثة أيام . وكان الألم يحز فى نفس الوالد ، ولا بد أنه كان أعنف فى نفس الوالدة .

ولكن الأسرة ردت إليه خاتم الخطوبة والشبكة « وعلبة الملبس » فكانت أشبه شيء فى حسه بمخلفات الميت بعد درجه فى الأكفان !

وقام هو من جانبه يرد صورها وأوراقها إليها ، وإن لم تطلب إليه ردها ، فتلك مخلفات الميت بعد درجه فى الأكفان !

تم هذا كله فى شبه ذهول . نخيل إليه فترة أن كل شىء هين ، وأن كل شىء قد انتهى . ولكنها كانت « سرقة السكين » كما يقول العوام ! فقد تنبه بعد فترة فإذا هو لا يجد نفسه ولا يجد ماضيه ، ولا يجد حاضره ، وكأنما هو فى بحران !

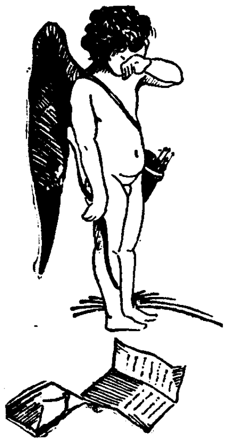

الترام المسحور

مضت أيام بعد المعركة قبل أن يستعيد لنفسه صلاتها بالحياة . وقبل أن يستيقن أن ركب الحياة يسير كما كان من قبل يسير ، وأن عجلة الزمن كذلك تدور ، وأن معالم الكون ومعالم القاهرة لا تزال !

مرت عليه هذه الأيام وهو فى حالة نفسية غريبة ، ليست عقلا ولا جنوناً ، وليست صحواً ولا ذهولا . كان يحس بالدهشة تخالجه كلما رأى شيئاً من مظاهر الحياة التى كان يراها قبل الكارثة ! وكان قد احتجب فى داره أياما من الإعياء ، واستغرق فى نفسه وأغلق عليه منافذها ، فلما خرج إلى الطريق أدهشه أن يجدها كما كانت ! وعندما قادته قدماه إلى المحطة بهت بهتة حقيقية وهو يرى القطار الذى كان يركبه إلى المدينة . . . أو لا يزال القطار يسير ؟ وإلى أين يذهب بالناس ؟

ووصل إلى المدينة فسار فى طرقاتها بنفس الشعور . . . وكان كل شىء ممكناً ــ مع ذلك ــ إلا أن تقوده قدماه إلى الشارع الذى يسير فيه الترام . وترامها هى على وجه خاص !

ورآه مقبلاً فحدق فيه ببلاهة ، وكان وعيه غائباً . ومرت لحظة ونفسه تحدثه ذاهلة : إنه لا يذهب إلى هناك ، فلماذا يسير الترام ؟! ثم أفاق فروّعه أن يكون قد وصل إلى هذه الحال !

***

ودارت عجلة الزمن ، فأصبح يقيناً ماليس باليقين . وعوّده كر الغداة ومر العشى أن الكون يستطيع أن يكون دون أن يكون حبه الكبير ! وأن الحياة تستطيع أن تمضى وإن وقف حبه إلى حدود وأن القطار والترام يسيران وإن لم ينقلاه إلى هناك !

ولكن الزمن لم يستطع أن ينسيه أن لهذا الترام الخاص سمة خاصة تميزه من كل ترام ، إنه ترام مقدس أو مسحور . ويكفى أن يلمح رقمه وهو يسير ليدق قلبه دقات عنيفة ، ولتتحرك خطاه ويهم بالركوب . ثم يصحو ، فيسخر من نفسه ، ويقف لحظات يسترد فيها هدوءه ثم يسير .

وظلت هذه الرغبة إلى ركوب هذا الترام تراوده فيصدها عن خاطره ، وتعز عليه كرامته ، ويتغلب عليها بالسخرية من نفسه تارة ، وبالتصميم على مغالبتها تارة ، وبالحجة يحاور بها رغبته تارة : لماذا تركب ؟ وإلى أين تذهب ؟ إنه لسخف تفكيرك ذاك !

وذات يوم يقابله زميل له فى المدرسة الأولى ، أيام المراهقة ، فيسلم عليه باشتياق الزملاء الغيّاب ، ويجلسان فترة يتذاكران أيام الصبا فيلتقى شعورهما عليها ، ثم يمتد الحديث فيشعر أن هوة تفرقه عن زميله . لقد وقف تعليم الزميل وثقافته عند حد ، بينما مضى هو يتعلم ويتثقف ويوسع معارفه وتجاربه ... فلما التقى به كان فى واد وزميله فى واد . . .

ويبرد الحديث ويجد فى نفسه فراغا منه ، ويعتزم أن يستأذن . وحسبه هذه اللحظات .

ولكن زميله يسأله عن عنوانه فيذكر له رقم مسكنه فى الضاحية ! ثم يتقدم إليه الزميل ببطاقته وفيها العنوان .

ماذا ؟ إنه يسكن هناك ! بل إن داره لا تبعد عن دارها إلا بخطتين فى الترام .

وهنا يعود زميله مخلوقا جديداً فى نظره . مخلوقا اخر غير الذى كان . مخلوقاً مسحوراً تحف به الأسرار وتحيط به الهالات .

وتراوده نفسه على أن يمد الجلسة ، فيصده عن ذلك أنه استأذن من زميله فعلا ، ولكنه يقول فى حرارة واضحة ، ولهجة مضطربة ، لا يزن فيها الكلمات والإشارات :

— آه . أنت هناك ؟ سأزورك إذن ، سأزورك قريباً !

ويتلقى زميله هذه الرغبة بالترحيب والاستبشار ، ولا يلمح شيئاً مما وراءها ، ولا يجول فى خاطره إلا أنه إعزاز الزميل القديم وشوقه إلى لقياه !

***

ولم يمض يومان حتى كان فى طريقه إلى زيارته . لقد وجد المبرر . فما تستطيع نفسه أن تحاجه بعد اليوم فى ركوب هذا الترام ! ماذا ؟ إنه ذاهب لزيارة زميله القديم العزيز ! . . .

ويتحمس لهذا الخاطر حتى ليضحك لحماسته حين يفيق ، وكأن أمامه من يحاجه ويشتد عليه فى الحجاج !

وحين وجد نفسه فى الترام تنفس نفساً عميقاً طويلا ، ومد قدميه فى حجرة الدرجة الأولى ، وارتكن بمنكبيه على حافة النافذة بضع لحظات.

ومضى الترام محطة ومحطة ومحطة . ثم أفاق . إلى أين هو ذاهب ؟ أماض هو إلى زميله حقاً ، أم إن هنالك غرضاً دخيلا ؟

وهتفت به كل ذرة فى كيانه : آه لو يلقاها فى المحطة أو فى الطريق العام ! إنه سيكون فى مجالها القريب بعد بضع محطات !

وتوالت المحطات . وكلما قرب من المحطة المسحورة زاد قلبه خفقاناً ، وزادت المعركة فى نفسه احتداما ، وساورته خيالات ضبابية ساذجة ، ودار فى نفسه حوار طفلى غريب :

— ولو كانت هناك ورأتك ، فماذا عساها تقول ؟

— ماذا عساها تقول ؟ إننى ذاهب إلى زيارة الزميل !

— ومن يدريها هى أنك ذاهب إلى زميلك ؟ ولم لا تؤول مرورك هنا بأنك تقصد رؤيتها ؟

— من يدريها ؟ وما ذنبى أنا ؟ وهل هو طريقها الخاص ؟

— ومع ذلك فقد لا تكون هناك !

وهنا يحس بانطفاء فى روحه وباكتئاب يغشاه . . . ثم . . . من الخير ألا تكون هناك . فقد تتوهم على كل حال أننى لا زلت أهفو إليها بعد كل ما كان !

وبينما تدور هذه المعركة كان الترام يقترب ، وهنا تزاحمت خواطره ، وفقدت نظامها واتساقها :

ليتها تكون . ليتها لا تكون . آه لو أراها . إننى أخشى لقياها . لست ذاهبا إليها ، أنا ذاهب إلى صديقى ! هه ! هذه هى محطتها !

وكانت أنفاسه عندئذ لاهثة ، وعيناه زائغتان . وخبأ رأسه قليلا ثم أطل بعنف ، ودار بعينه دورة سريعة . وتحرك الترام من المحطة ... الحمد لله . إنها ليست هناك، ولكنه يخمد ويخبو وتركد أنفاسه ، ويغشى خواطره الظلام !

***

واستقبله زميله ! — أو صديقه كما راح يسميه — بحفاوة وبشر وابتهاج ، ولاقاه هو بهمود وبلادة واكتئاب ، وعزا ما به إلى تعب السلم ؛ وغاص فى كرسيه يستريح .

وانقضت الزورة ، وهم بالاستئذان . وإذا زميله ينزل معه ليودعه ويعرض عليه أن يتمشيا محطتين حتى يفرغ زحام الترام بعض الشىء لأن فريقاً من الركاب ينزل عادة هناك .

وأحس بانتعاش قوى لهذا الاقتراح . محطتان . أى أنه سيركب من المحطة المقابلة للدار . وزميله معه ؛ فهو حجته فى زيارة الحى والركوب من هذه المحطة ! وكأنما هناك من سيسأله : لماذا جاء إلى هنا ؟ ولماذا يركب من هناك !

وسار فى نشوة وفى قلق كذلك . سار يتلفت هنا وهناك عسى أن تقع عينه عليها فى الطريق أو فى الشرفة أو فى أى مكان .

ولكنه لم يرها ، وبدأ يخمد مرة أخرى . وفجأة يرى أمامه وجهاً لوجه ... بواب الدار فى الطريق العام

— عم سليمان ؟ أهلا وسهلا عم سليمان !

وقال الرجل بلهجته النوبية الخاصة :

— أوه . إيه حالك يا بيه ؟ والله زمان !

— الحمد لله ياعم سليمان !

وأفعمت اللهفة نفسه أن يسأل عن أهل الدار . ماذا جرى لهم ؟ ما أخبارهم ؟ هل تزوجت ! وألف سؤال وسؤال ... ولكن كبرياءه وقفت به لا يلقى أى سؤال .

وقال الرجل فى لهجة يخامرها الأسف والأسى :

— فين أيامك الحلوة يا بيه ... (وسكت برهة) هم كمان عزلوا من زمان !

وانفتح له الباب على مصراعيه . ولكنه ظل متحفظاً ؛ فقال فى حذر ينفى عنه الريبة :

— نقلوا ؟ لا بد أن يكونوا بعيداً عن الحى !

وقال الرجل : إنهم لم يبعدوا كثيراً . فهم فى الحى المجاور .

ولكن بقيت أمامه مشكلة أخرى : أن يعرف بالضبط عنوانهم الجديد .

ولكن لماذا يعرف عنوانهم الجديد ؟ ما علاقته بهم ؟ وهب له بهم علاقة ، فإنه يعرف رقم تليفون أبيها فى مكتبه ، وهذا يكفى ! ولكن شعوراً غامضاً يساوره : إنه يحب أن يعرف المنزل الجديد، إنه يحتفظ فى مخيلته بصور المنزل القديم ، ويسترجع من هذه الصور حركاتها وتنقلاتها . هى مرة فى حجرة الجلوس توقع على البيانو ، وهى مرة تستقبله على الباب ، وهى مرة فى مرافق المنزل ، وهى مرة تنام فى سريرها الخاص ، وهى مرة تقفز وهى تقطع الممر القصير فى بضع خطوات ... فهو يملك منها شيئاً كثيراً ، ولديه منها رصيد مذخور . ولكن فى هذا المنزل الجديد كيف يتخيلها ؟ إن صورها مائعة فى خياله ، بل لا صور لها إلا ما يحاول الخيال أن يركبه من العدم فلا يستطيع .

مرت هذه الخواطر فى نفسه سراعا والبواب أمامه ، ثم هدته الحيلة ، فقال :

— والله كنت أريد أن أقابل أخاها لأمر هام ، ولكنى لا أعرف العنوان !

وهنا أسرع البواب فذكر له اسم الشارع ورقم المنزل وهو يقول :

— « والله ناس طيبين . زيك يابيه . مين يعرف؟ يمكن برضه يكون لكم نصيب ! »

واستروحت نفسه هذه الكلمات استرواح الظلال فى الهجير .

إذن هى لم تتزوج بعد ، ومن يدرى فقد تكون هنالك بقية . ألا يقول ذلك الرجل البواب ؟ !

وارتد إليه نشاطه ، ووثبت خطواته ، ووقف ينتظر الترام على المحطة مع صديقه حتى جاء ، فركبه ومضى فى نشوة وانطلاق .

* * *

وغالبه الشوق الجارف لأن يتعرف الدار الجديدة . ولكن إرادته كانت أقوى ، فلم يحاول ذلك أياما طويلة ، إلا أن زياراته لصديقه لم تنقطع ، فالحى الجديد فى طريق الحى القديم !

وفى كل مرة كانت تدور المعركة ذاتها ، وتنتهى الزيارة كما تنتهى إلا أنه فى مرة تشجع فطلب إلى زميله أن يرافقه ليتمشيا فى الحى الذى ذكره البواب ، لأنه يريد أن يسأل عن شأن له هناك !

وكان وجود زميله معه هو المبرر الرسمى لوجوده ! وسارا حتى وصلا إلى الشارع المطلوب ،وظل يتصفح أرقام البيوت دون أن يلفت

زميله ، وكلما قرب من الدار ارتفعت دقات قلبه وبدا عليه الاضطراب .

وحميت المعركة التى دارت فى أول مرة ، وزاد الإحراج أنه يسير هنا ولا يركب الترام ، وازدحمت الهواتف والرغائب والمخاوف حين صار أمام المنزل ... ولكن هاهى ذى نوافذه مغلقة ولا شىء هناك !

وكان الجهد قد نال منه ، وبدا عليه الاعياء ، فلم يجد مشقة فى إقناع صديقه أنه متعب ، وأنه يحسن أن يعود فيأخذ الترام .

* * *

ولم يحاول بعد ذلك أبداً أن يمر فى هذا الحى ، لقد اطمأن إلى معرفة الدار ، كأنما هذا كل ما هنالك . ولكنه لم يتخلف عن زيارة صديقه والمرور على الشارع الذى به الدار من بعيد فى الترام !

وفى يوم يلقى زميله فى القاهرة ، فيسرع إليه ليخبره أنه ترك داره القديمة إلى عنوان جديد ، ويخرج من جيبه ورقة ليكتب له فيها العنوان الجديد !

وأخذ أخذة شديدة ، وخيل إليه لحظة أنها عملة سخيفة جداً ! وكاد لسانه يفلت فيؤنب الرجل عليها ! ولكنه يتدارك نفسه ، ويخفى تجهم وجهه وملامحه ، ويتناول الورقة فى برود فاتر . لقد سقطت حجته فى أن يذهب بعد اليوم إلى هناك !

وقال الرجل فى براءة : ستزورنى طبعاً فى عنوانى الجديد ! قال فى برود وشرود : إن شاء الله . إن شاء الله .

الصورة الهاربة

تخلفت عنده صورة لم يردها إليها ... لم يكن ذلك عن عمد . كانت هذه الصورة أكبر حجماً من أخواتها . وكن جميعاً فى ظرف صغير ، أما هى فكانت فى ظرف آخر كبير ، وكان قد أهملها فى مكانها لأنها صورة « مهزوزة » فلم يكن يراها كثيراً لأن الصور الأخرى أوضح وأدق وأجمل . ولكنه أراد أن يردها إليها كما رد رفيقاتها ، وبحث عنها فلم يجدها ، فأضمر أن يردها حين يعثر عليها .

وحينما هدأت الثورة التى طغت على أحاسيسه ، وتكشفت الغمرة التى أغرقت عواطفه ، وساوره الحنين إلى حوريته الهاربة التى تبدت أسطورة خالدة فى حياته ... عندئذ أحس باللهفة والشوق إلى كل أثر من آثارها ، وشعر بالحنين المترقرق يهمس فى جوانحه : يا ليت شيئاً ما من أشيائها يكون فى متناوله !

وكان كل شىء يتصل بها من قريب أو بعيد قد بات حبيباً إلى نفسه ، ترف عليه روحه ويترقرق الوجد فى حناياه ، وتحف به هالات مسحورة تتراءى خلالها الطيوف والأحلام !

ودب الندم والتمنى إلى أحاسيسه فى فترات كثيرة : لو أبقيت صورها ! إنها لم تطلبها منى ! لو أبقيت رسالتها إلىّ ، وهى رسالة تنطق بنبل ضميرها ، ودقة حساسيتها ، وتصور حقيقة معدنها ، ويقظة شعورها ! لو أبقيت «الشبكة» وخاتم الخطوبة وهما يساويان — فى الذكرى — أضعاف أضعاف ثمنهما ! لو أبقيت «علبة الملبس» إنها على كل حال أثر منها ! لو عملت ، لو أبقيت . . .

وتقلب يده ذات يوم فى أوراقه ، فإذا هو يعثر على الصورة . . . قفز قلبه قفزة شديدة بين ضلوعه ، وبقى فترة طويلة يدق دقاً متواصلاً عنيفاً ، وارتجفت يده وهى تتناولها فى قداسة وروعة ، فتقربها من عينيه ، فيتطلع إليها هنيهة فى شغف واغل وفى صوفية مشرقة ، ثم يقربها من فمه فيقبلها قبلة طويلة عميقة ، تشترك فيها كل خالجة وكل ذرة فيه ، وتستنفد منه طاقة يحس بعدها بالهمود والاسترخاء . . . وتترقرق فى عينه دموع حارة ، فيستسلم لها فى راحة لذيذة ، وتنقضى فترة طويلة ، وهو فى شبه غيبوبة .

ويفيق ، فلا يحاول النظر إلى الصورة مرة أخرى ، بل يدسها برفق بالغ فى الظرف ، ويغلقه بحنان ! كما لو كان يلف وليداً لينام ! ويضع الظرف بعناية فى درج مكتبه ويغلقه بهدوء ، ويقوم فيمشى

باحتراس حتى يغادر الحجرة ، ويغلق الباب فى سكون .

. . . إن هناك وليداً نائماً يخشى عليه الضوضاء !!!

* * *

ومضت أيام كثيرة لم يحاول أن يرى الصورة فيها . كان مطمئناً لوجود الذخيرة عنده ، وكان فى نفسه شعور غريب آخر : إنه يشفق من رؤية هذه الصورة ، وإنه ليرتعش حين يفتح درج المكتب ليتناول منه شيئاً ؛ ثم هو يحس بشعور العابد الورع حينما يقرب من الهيكل ليناجى المعبود المقدس . وكل هذه الأحاسيس المجتمعة كانت تصده عن المحاولة ، تلك الأيام الطوال .

وذات يوم يجد فى نفسه لهفة تتيقظ للصورة ، ويفتح الدرج على عجل ، يلتمس الصورة فى مكانها فلا يلقاها .

وأحس بفزع ، فراح يعيد الفحص بين الأوراق فى هدوء ونظام أول الأمر ، ثم فى عجلة واضطراب بعد ثوان .

وعبثاً حاول أن يعثر عليها . لقد قلب الأوراق رأساً على عقب ، ثم ترك الدرج وراح يقلب فى الأوراق فوقه ، ثم ترك المكتب وراح يفحص فى أدراج الكتب ، وفى كل مكان فى الحجرة على غير جدوى ! ياللشيطان ! أين ذهبت الصورة ؟

راح يسأل أفراد الأسرة واحداً واحداً ، وراح يقلب كل ما فى البيت ويبحث حتى فى غير المظان . ولكن جهوده كلها ضاعت سدى .

وجلس حائراً مكدوداً . أين ذهبت الصورة ؟ وقام يعاود البحث من جديد ! وتكرر هذا البحث أياماً كثيرة ، حتى يئس من وجودها ، وفرض الفروض الكثيرة لضياعها . . . وهنا أحس ما يحسه الوالد يفتقد الوليد ، يفتقده تائها خرج ولم يعد للدار . ويحز الألم فى نفسه ، وتتغشاه لوعة عميقة ، ويعتاده لهف شديد . . . ولكنها ذهبت ضياعاً !

***

ثم تمضى الأيام ، ويحس ذات يوم لهفة للحورية الهاربة من نوع جديد ، لهفة يجد لها فى روحه رهقاً ، وفى حناياه التياعاً ، ويشعر أن نفسه تتذاوب حنيناً ، وأنه كله ذوب متهافت إليها ، وكانت هذه اللحظة أقسى على نفسه من كل لحظة سواها ، لا يستطيع أن يشنى لهفه ، وقد انقطع آخر خيوط الرجاء الضئيل فى العودة .

وفى هذه اللحظة يتناول كتاباً يحاول أن يهرب إليه من نفسه ، ويقلب صفحاته على غير اهتمام . وهنا تبغته المفاجأة العجيبة : الصورة هنا بين طيات ذلك الكتاب !

وخانته قواه ، وأفلتت منه إرادته ، وبدا فى هيئة مضحكة ساذجة غريبة . حدقتاه متسعتان ، ونفسه مضطربة ، وصدره يعلو ويهبط ، والصورة أمامه ضاحكة لا تمتد اليها يداه !

وبعد فترة هدأ اضطرابه ، وسكن جأشه ، وعاد إليه هدوؤه ، فتناولها وضمها إليه فى فرح ضمة الوليد العائد بعد اليأس والقنوط ، وراح يربت عليها . فلو رآه أحد فى هذه اللحظة لظن بعقله الظنون !

ولم تحاول الصورة بعد ذلك أن تهرب ! وقد ألفته ! واطمأن قلبه إلى أن بين يديه منها أثراً . ولم تطاوعه نفسه أن يرد إليها صورتها الأخيرة على الرغم من هتفات ضميره به أن يردها إليها .

ووجد المعاذير لنفسه أمام إلحاح هذا الضمير : إنها لم تطلب منه صورها أبداً ، وإنها لتثق بأن صورتها عنده كريمة ، وإنه لن يسىء إليها بهذه الصورة أبداً ، وإنه ليتوجه الى الصورة بإحساس مقدس ، وشعور مطهر . . .

ولو أنصف نفسه لقال : إنه لا يقوى على فراق صورتها ، فإنها آخر خيط منها ، وإنها وحدها تتمثل فيها كل خواطر الماضى العزيز ، وكل صوره وأطيافه ورؤاه !

الأسطورة الخالدة

لم يخالج صاحبه شك فى أنه يهذى أو يمزح حينما ضغط على يده فى عرض الطريق وناداه :

— ألم أقل لك : إننى سألقاها الآن ؟ ها هى ذى ياسيدى أمامك لتصدقنى !

ونظر صاحبه فإذا فتاة مبهوتة مقيدة الخطوات ، تتوالى على سيماها فى لحظة شتى الانفعالات .

أما هو فقد تابع سيره ويده فى يد صاحبه ، يضغط عليها كما ضغط أول مرة . وإنه ليترنح فيتظاهر بالتماسك ، وتتلاحق أنفاسه فيتظاهر بالابتسام ، حتى يصلا إلى مفرق الطريق فإذا هما يقفان !

لم يكن أحدهما بأقدر من الآخر على تحديد الاتجاه . فأما صاحبه فكان مايزال فى دهشة المفاجأة : المفاجأة من تحقق النبوءة على هذا النحو الذى لا يعهد إلا فى عالم الأساطير . وأما هو فكان مايزال فى هزة المفاجأة : المفاجأة التى تنبأ بها منذ لحظة ، ثم هو يتلقاها كمن لا ينتظرها بحال !

وحينما طال بهما الانتظار ، صحا صاحبه قبله من دهشته ، وحسب أنه يسدى إليه خيراً إذا هو عاد به أدراجهما فى الطريق ليواجهها مرة أخرى !

ولم يكن هو زاهداً فى محاولة هذا اللقاء ، ولكنه كان فى هذه اللحظة يستطيع أن يواجه الشيطان ؛ ولا يواجه الفتاة التى تهتف به كل ذرة فى كيانه أن يلقاها الآن !

لقد تنبهت فيه غريزة الخوف من الخطر حينما رأى نفسه يكاد يستسلم لمحاولة صاحبه ، فيمثل دور الفراشة التى تتهافت حتى تحترق على نور المصباح . فإذا هو يمرق بصاحبه إلى ممر يؤدى إلى شارع آخر مواز للشارع الخطر ، وهو يزعم لصاحبه أنه يقصد إلى مشرب هنالك خاص ،حتى إذا صارا فى الشارع الأخير ، أحس أنه يلتقط أنفاسه ، وأنه فى مأمن من جاذبية التيار . . . فوقفا يستريحان .

* * *

كان صاحبه يعلم قصته منذ نشأتها . بل كان يعيش معه هذه القصة فى كل فصولها ، وكان يعلم أنه قد مضى على آخر لقاء لهما عام كامل بعد أن وقع بينهما ماوقع ، مما يؤذن بانفصال لارجعة فيه ، وبعد أن انتهى بينهما كل شىء ولم يبق إلا الذكريات .

وكان صاحبه يعلم مرارة هذه الذكريات وحلاوتها ، تلك المرارة وهذه الحلاوة اللتان يمزجهما فى كأس واحدة ، يخشاها أبداً ، ويحن إليها أبداً ، ولا يفتأ يتشهاها مرة ، ويجفل من مسها مرة ، ويصوغ ذلك كله فى قصائده وأغانيه ؛ بل يتخذ من ذلك كله مادة حياة .

كان كل شيء قد انتهى ، وانتهى بالصورة التى يعييه أن يحاول بعدها وصل ما انقطع ، أو رجع مافات ، كانت كبرياؤه تأبى عليه أن يعود ؛ وكانت مرارة الذكرى تطغى على حلاوتها فى معظم الأحيان ، وكانت تجربته تذكره دائماً بالآلام .

ولكن هذه التجربة وتلك الكبرياء لم تكن واحدة منهما بمستطيعة أن تصرف طيفها عنه ، أو تمحو صورتها من نفسه ، أو تصرفه إلى حياة أخرى غير الحياة التى رسمها خياله معها . كانت قد استحالت فى حياته أسطورة خرافية تسيطر على هذه الحياة .

وكان يزعم لنفسه أو تزعم له نفسه — حينما يسترجع مرارة الكأس المسمومة — أنه قد انصرف عنها ، وأن الأسطورة الخرافية قد تنحت عن مجرى حياته ، فهو يصرّف هذه الحياة كيفما يشاء !

وتحدث بهذا الزعم لنفسه مرة ، وتحدث به لصاحبه مرات . ولكنه كان يحس فى أعماقه ، وهن هذا الزعم وتهالكه ، فيزيده هذا الاحساس توكيداً لما يزعم ، ومجاهرة بما يدعى ، كالخائف يهتف بالقوة والتحدى ليتشجع فى وجه أشباح الظلام !

وكثيراً ما راوده صاحبه على أن يحاول العودة والاتصال — وهو يعلم من دخيلة نفسه ما يعلم — فكان هذا يزيده إصراراً على كبريائه ، واستعادة لمرارة الذكرى ، وادعاء بأنها لم تعد شيئاً فى حياته . وإن كان يتخاذل فى بعض الأحيان ، فيعترف له بأنها أعمق فى نفسه من هذا الادعاء ومن تلك الكبرياء ، وأن الذى يعصمه من محاولة العودة إنما هو مرارة الذكرى ووخز الأشواك .

ثم تلت ذلك فترة أحس فيها حقيقة بأن عالمه قد خلا من تلك الأسطورة اللعينة ؛ ولكنه لم يسترح لهذا الإحساس .

لقد شعر بالفراغ والجفاف ، وانتابه ما ينتاب المؤمن بعد الإلحاد ، وما يصيب الصوفى بعد الضلال !

لقد خلا الهيكل من الصنم المعبود ، واستوحش الصوفى من مسبحات الشهود ، وران على نفسه وعلى العالم كله ظلام وخمود .

لقد عادت الحياة تكلفاً لا يطاق ، وراح يقطعها كما يقطع

الأجير المسخر أيامه ولياليه فى العمل المجهد الكريه ، وليس له منه إلا أجره الزهيد !

ألا ما أشقى الملحدين الحيارى الشاردين عن الهيكل ، ولو كانت تعمره الأصنام !

* * *

واليوم — بعد ما انقضى عام كامل — كان قد تناول الغداء مع صاحبه هذا وصديق ثالث لهما . وهم ثلاثتهم من أصدقاء الصبا ، ولكل منهم قصة فى حياته تنتهى بالحرمان على نحو من الأنحاء ، ولكل منهم موسم يتحدث فيه عن قصته حينما تبدع يد القدر فيها فصلا جديداً ، فحيثما ضمهم مجلس تسللت إلى أحاديثهم قصة من قصصهم الثلاث !

وبعد الغداء ذهب الصديق الثالث لبعض شأنه ، بعد ما قص على صديقيه فصلا من فصوله ، هاج صاحبه لأن يقص عليه بدوره فصلا من قصته : وما يكاد صاحبه ينتهى من هذا الفصل الأخير حتى تنبض فى نفسه لهفة خاطفة ، وحتى ينسى كبرياءه وادعاءه ، وينسى مرارة تجاربه وذكرياته ، وحتى يفضى إلى صاحبه بهذه اللهفة العارمة :

— كم أنا مشتاق إليها ! إن المصادفات التى كانت تبيح لى

لقاءها مرة ومرة — أيام أن لم يكن لقاؤنا رهن المصادفات — عادت تضن بها اليوم على مدار العام !

قال له صاحبه :

— إن الأقدار لحريصة على حبكة الرواية !

فمضى هو فى لهفة حديثة : ترى كيف هى الآن ؟ أريد أن أعلم أى خبر عنها ، بل أريد فقط أن ألمحها من بعيد . ترى تغيرت ؟ أم ما تزال كعهدى بها منذ آخر لقاء ؟

ثم ينتفض واقفاً من المقهى الذى كانا يستريحان فيه ، ويأخذ بيد صاحبه ، وإنه ليكاد يدفعه دفعاً إلى السير فى الطريق العام .

وقال له صاحبه — بعد مسيرة خطوات :

— إننى أهم أن أفترق عنك لشأن خاص .

فتمسك به وهو يقول :

— كلا ! لن تتركنى . فستتسكع . هنا !

ويسكت لحظة ليقول — وكأنما يستشرف لرؤيا من بعيد :

— أحس أننى سألقاها الآن .

فيتهكم صاحبه ويجيبه مداعبا :

— إذن أتركك تستمتع بهذا اللقاء !

وإنه ليخشى أن ينفذ صاحبه وعيده ، وإنه ليحس برعشة فى كيانه كمن يواجه الخطر ، فيقول :

— كلا ! لن تتركنى . فإننى لأفضل إذا لقيتها أن تكون معى ، كما يحسن أن تكون معى لو كانت صدمة قطار أو صعقة تيار ، ثم يتلو أبياتا من إحدى قصائده فى هذا السياق .

وإنه ليمد بصره ، فإذا المفاجأة المنظورة ، وإذا الخطر المرتقب على بعد خطوات .

يا للسماء ! بل يا للشيطان !

إنها الأسطورة الخالدة فى صورة من صورها الكثيرة . وهل كانت القصة كلها إلا أسطورة فى عالم الخرافات .

* * *

حينما هدأ روعه ، واستقرت قدماه فى الشارع الموازى للشارع الخطر ، كان فى حاجة ماسة إلى الوحدة والانفراد ، كان يحمل فى وطابه ثروة مفاجئة ، يريد أن يستعرضها وحده فى خفية عن الأنظار !

قال له صاحبه :

— والآن إلى أين ؟

قال :

— إلى الضاحية

قال الصاحب :

— وهو كذلك لتستريح !

وسار به مرة أخرى إلى الشارع ليركبه الترام ، فلم يحس هذه المرة بالرهبة من الشارع الخطر ، ولم يحس باللهفة عليه أيضاً . لقد كان فى وطابه من الثروة ما يشغله عن الرهبة واللهفة جميعاً .

وحينما انفرد فى الترام كان فى غيبوبة حالمة . كانت الأشياء والمناظر والأشخاص تتوالى على عينه المفتوحة كما تتوالى الأطياف الغامضة والرؤى اللطيفة ، فلا تترك فى حسه إلا ظلالا خفيفة . ومع هذا فقد كان يود الخلاص من هذه الظلال . كان يضم جوانحه فى رفق على ومضة من عالم الخلود ، لا يجوز أن تغشاها ظلال الزحمة الفارغة فى عالم الهالكين .

ثم ركب قطار الضاحية ، وإنه ليركبه كل يوم فى الصباح والمساء ، وإنه ليضيق به فى الأيام الأخيرة وبما يثيره من الضجيج والغبار ، ولكنه اليوم لا يشعر بهذا الضجيج ، ولا يلتفت إلى هذا الغبار وإن القطار ليخرج من العمار إلى الصحارى فى ساعة الغروب

وإنه ليرسل ببصره كالحالم فى هذا الفضاء الجميل ، وكأنما يراه أول مرة فى هذا الأوان !

* * *

فى هذا المساء كان كالحالم المخدور ، فإذا صحا فليستعيد فى خياله موكب الصور المتزاحمة فى تلك اللحظة المليئة ، وليحاول أن يتخيل كيف كانت سحنته وملامحه بعد ما لمح كالبرق سحنتها وملامحها وليسأل نفسه كالأطفال :

أكان يبدو علىّ التماسك وعدم المبالاة ؟

أم كنت خائراً مضعضع القوى ؟

أكنت منفرج الملامح باش السمات ؟

أم كنت مقطب الوجه مغضن الجبين ؟

ترى أسأت إليها بجمودى وقلة مبالاتى ؟

أم ترى استشفت خواطرى وانفعالاتى ؟

ما الذى كانت تفعله لو لم يكن معى صاحبى ؟

ما الذى كنت أفعل لو لاقيتها منفرداً ؟

وهكذا وهكذا من هذه الأسئلة الطفولية الساذجة ، التى لا يطمئن فيها إلى جواب ، والتى ما كانت تخطر له ببال ، لولا الأسطورة التى تظلل حياته ، وترده فى كثير من الأحيان إلى خواطر الأطفال

ولكنه مع هذا كله لم يكن قلقاً ولا مهتاجا ، كان هادئ القلب ، رضى النفس ، نشوان الخيال . لقد أرضاه أنها لا تزال بعد هذا العهد الطويل تضطرب هذا الاضطراب حين تلقاه ، وأنه يستطيع أن يتظاهر بالتماسك فى وجه هذا الاضطراب !

ولقد أرضاه أنه لا يزال يحمل الشعلة المقدسة بين جنبيه ، ويملك هذا السر الذى كان يحسبه قد تاه : سر التوجه إلى الصنم بمثل هذه الحرارة ومثل هذا الاختلاج !

ولقد طمأنه أن صاحبه يقرر — وقد رأى منهما ما رأى — أن الستار لم يسدل بعد ، وأن الرواية لم تتم فصولا ، وأن فى الجعبة مخبآت . لقد استمع إلى نبوءة صاحبه هذه فى لهفة واشتياق كما يستمع إلى أسعد البشريات !

* * *

وكان فى الأيام الأخيرة قد ضاق بالعاصمة فى حر الصيف ، وبرم بالعمل فى وقدة الحر ، وتجاوز الضيق دائرة العمل ودائرة القاهرة ، فشمل الحياة كلها ، وشمل الناس والأشياء ، وكان قد اعتزم أن يرحل عن العاصمة الكريهة إلى جهة ما ، وأن ينجو بنفسه من هذا الضيق المحطم للأعصاب . ولو لبضعة أيام .

فأين صارت منه هذه العزيمة بعد ساعات ؟

إن القاهرة لحبيبة ، وإن الحياة فى هـذه الدنيا لجميلة ، وإن فى الـكون الواسع لفسحة للآمال ، وإنه لن يبرح القاهرة ، ولو لبضعة أيام .

أليس فى القاهرة هذا الطريق العام ؟

أو لم يلقها مصادفة فى هذا الطريق العام ؟! ...

عـارية

بعد عام ونصف عام لاقاه الضابط الشاب — صاحب الماضى الحى — فى الطريق العام ومعه فتاة ! لقد دهش أول الأمر ، ودفعه حب الاستطلاع لأن يعرف من تكون الفتـاة . . . لعلها أخته أو قريبته . إلا أن هاجساً كان يهتف فى أعماقه : كلا كلا . إنها شىء آخر فى حياة هذا الشاب .

كيف يعرف ؟ ليته يستطيع أن يسأل كائناً من كان .

ولم تطل به الأيام فى هذا الشك والقلق ، فلقـد لقى الشاب مرة أخرى وحيداً . لقيه فى الترام ، فما لبث أن سلم عليه ، وأخذ معه فى الحديث .

قال :

— لقد عدتَ من السودان !

— نعم من مدة !

— وكيف الحال الآن ؟

— الحمد لله .

— ألا تزال تسكن هناك !

— نعم فى نفس المنزل .

وخاف أن يستمر الحديث هكذا حتى ينزل من الترام ، فعرج على المسألة التى تضطرب فى نفسه من بعيد .

— لقد شاهدتك منذ أيام فى شارع فؤاد فلم أسلم عليك لأنك لم تكن وحدك .

— آه . كانت معى خطيبتى !

— خطيبتك ؟ وهل خطبت غير . . . ؟

— ماذا أصنع ، إن أمى لم تقبل أبداً ! ثم هى . لقد قابلتها فلم تسلم علىّ !

— معها حق ! (قالها فى راحة وفى حنق مكتوم) .

— إن أهلى جميعاً شديدو الحنق عليها . إنهم يشيعون عنها إشاعات كثيرة ، ويشوهون سمعتها فى كل مكان ، ويقولون عنك أنت : إنك تركتها لسوء سلوكها ، وقد ساءت سمعتها فعلا فى الحى كله ! فتركوه إلى حى جديد .

هم أن يصفعه فى هذه اللحظة . ولكنه أمسك نفسه وهو يقول :

— أنا ؟ أنا تركتها لسوء سلوكها ؟ من قال ذلك ؟ إن الذى يقول هذا كذاب . إنها مسكينة . إنها ضحية الرجولة الناقصة فى شبان الجيل !

وكان الترام قد وقف ، فاستأذن الشاب ونزل ، قبل أن يسمع بقية الشتائم التى كانت ستنفجر لو طال الحديث !

* * *

لم يستطع أن ينام ليلته . لقد كان يساوره القلق ويخز ضميره الندم . من يدرى أن له يداً فى تعطيلها عن الزواج ؟ إن خطبته لها كانت قد عرفت فى وسطها كله ، فمن يستطيع أن يعرف الحقيقة ؟ من الذى لا يظن أن فصم الخطبة كان لشىء علمه عنها مما يسىء ؟ وهل الناس مستعدون أن يقدروا حقيقة الموقف ؟ وهل لديهم الوقت الكافى للبحث والمعرفة ؟ إنها كانت محسودة فى أسرتها لجمالها وذكائها وزواجها . وإنهم سيجدون فى فصم الخطبة بعد عقدها مادة كاملة لشفاء أنفسهم من الحسد الكظيم . ثم ألم يكن هو الذى منعها من هذا الشاب ؟ حقيقة إنهم رفضوه أول مرة ، ولكن من يدريه أنه لولا وجوده فى المرة التالية لقبلوه ... مسكينة . مسكينة . ليته يستطيع اليوم أن يصلح هذه الأخطاء !

وأدركته سنة من النوم ، فوجدها . وجدها عارية تتوارى عن عينيه فى انزواء . ودار بينهما حوار : هو يريد أن يلقى عليها رداءه ليسترها ، وهى تمتنع وتتوارى . . . ثم . . . ثم تعتذر له من دعوتها لمرافقته :

— إننى كما ترى عارية . لا أستطيع التعرض للأنظار ! . . .

ثم إننى لست . . . عذراء . . . !

***

كان هذا الحلم من وحى الوساوس التى ساورته فى اليقظة ، ولكنه ترك فى نفسه أثراً عميقاً . لقد طبع فى خياله حقيقة واضحة حتى لتحس. حقيقة أليمة مؤذية ، لا يقر له من بعدها قرار : أتكون حقيقة كما قالت فى الحلم ؟ أيكون امتناعها عليه لهذا السبب . . . ؟ هى ؟ هى حوريته الهاربة ؟ هى عذراؤه الطهور ؟ هى ... هى ؟

وفى مساء اليوم التالى كان فى منزلهم على غير انتظار .

لقد دهشت حينما رأته دهشة شديدة ، ودهش كل من فى البيت أيضاً . إن كل شىء قد انتهى إلى غير رجعة ، فما الذى يرجعه الآن؟

وقال لهم فى لهجة عميقة صادقة :

— هل أستطيع أن أستأذنكم فى أن أخلو بسميرة دقائق

قليلة ؟ إن لى معها حديثاً للمرة الأخيرة ! وكانت الحواجز بينهما معدومة — على الرغم من كل ما وقع — فلم يجد ممانعة من أحد ، فكل من حولها يتمنون رجع ما فات .

وجلس بجوارها على أريكة واحدة ، وأخذ يدها بين يديه فى اضطراب ، ونظر فى عينيها بشدة يريد أن يستجلى سر الحلم الرهيب . إنه ليهب نصف عمره لمن ينبئه بالسر المرهوب .

قال :

— اسمعى يا سميرة . لعلك تستغربين عودتى الآن . . .

قالت :

— كلا . لقد كنت أتوقع فى كل يوم أن تعود !

قال :

— نعم هذا صحيح . أتذكرين يوم أن لقيتك بغتة فى الطريق بعد الانقطاع ؟

قالت :

— لقد كان منظرنا يومها غريباً !

قال :

— والآن باختصار . أريد أن أقول لك : إننى لقيت « ضياء » وعلمت منه حقيقة موقفك .

قالت وهزت كتفها ساخرة :

— ضياء ! ألا تزالان تلتقيان ؟

قال :

— لا . لقد قابلته مصادفة ومعه خطيبته !

قالت بنفس اللهجة :

— لقد علمت !

قال :

— وقد رأيت حلماً أزعجنى فجئت لأستوثق !

قالت :

— متشكرة . ولكن لندع هذا الحديث،فما عاد يجدى بعد الآن.

قال فى حرارة : — إنك لا تدرين حلمى الرهيب . إنه رهيب حقاً . إننى أكاد أجن !

قالت فى دهشة : — وما حلمك ذاك ؟

هنا تلعثم وبدا عليه الاضطراب . بأى حق يواجهها بهذه التهمة الكبيرة ؟ ألمجرد أنه رأى حلماً من الأحلام ؟ وأحس فى هذه اللحظة أنه ظالم لها ، ونظر فإذا عيناها تطل منهما البراءة ، فعادت إليه ثقته الوثيقة .

قال فى تلعثم —:على أى حال هى ما قد حلمت به صحيحاً فإننى مستعد أن أغفر كل شىء . إننى أقبلك على كل وضع من الأوضاع ! قالها فى صوت عميق النبرات ولم يدر إن كانت فهمت . ولكنها قالت فى هدوء :

— من الخير أن نبقى هكذا أصدقاء . من الخير لى ولك ، إننى فى حاجة لأن أحس أن هناك صديقاً ، وأنت رجل شاعر فلتمض إلى عملك الأدبى كفنان !

قال ، وقد حسب أنها تتجمل ولا تنوى ما تقول :

— لا يا سيدتى . إن كان الشعر لا ينضجه إلا الحرمان ، فأنا سأطلق هذا الشعر من الآن !

قالت فى لهجة جازمة :

— كلا ياسامى إن عملك الأدبى أدوم وأخلد . إنك لا تزال مخدوعا فى قيمتى ، إننى لا أساوى شيئاً ، ولكن لتظل هكذا مخدوعا من بعيد لتستطيع أن تنشئ شعراً وقصصاً . لقد سمعت قصصك الأخيرة فى «الراديو» وهى قصص مؤثرة وجميلة ، إنك تتحدث فيها عن «الحورية الهاربة» فلتتحدث عن هذه الحورية مااستطعت. فلو أنك عرفتها على حقيقتها لما كتبت كلمة واحدة بعد الآن!

وأحس فى تعبيرها نضوجا كاملا لم يعهده من قبل . نعم إنها كانت على استعداد لهذا النضوج ، وكانت بوادره تلوح فى بعض تصرفاتها و بعض تعبيراتها ، ولكنها كانت أبداً الطفلة المرحة العابثة، تفتن فى وجوه الشيطنة لتغيظه وتحنقه ، ثم تنفجر ضاحكة فى اللحظة المناسبة ، حتى سماها « الطفلة الشقية » مع ما يبدر منها فى بعض الأحيان من بواكير النضج والاستواء .

فقال :

— أراك ياسميرة تتحدثين بلغة الروايات،وأخشى أن تخلطى بين الحقائق والخيالات ، هذا الذى تقولينه يصلح للقصص ، ولكنه لا يصلح للحياة !

قالت :

— كلا ! إننى أعرف الحقيقة وأعيش فيها ، إنما أنت الغارق فى الأحلام والخيالات ، وإنه لمن الخير لك ألا تعيش فى الحقيقة وأن تبقى هكذا فى الأحلام !

وارتفعت فى عينه درجات وهى تقول هذه الكلمات الأخيرة ، وزاد حرصه عليها وشغفه بها ، ولم يبال الأشواك والأحلام !

قال :

— ولكننى لن أترك كل هذه الثروة تفلت من يدى بعد الآن !

قالت :

— يالك من رجل طيب مخدوع . لقد غرك البريق !

قال :

— فليكن ، ولا بد أن ننتهى إلى قرار ، فقد طال الحديث . وهم ينتظروننا فى الحجرة المجاورة .

خفضت بصرها ، وألقت بالكلمات كأنها صادرة من بعيد :

— اسمع يا أخى ، إننى لا أصلح لك . إن حياتنا لن تستقيم . إننى عارية ، عارية أمامك ، ولن أقف عارية أمام إنسان !

« عارية ؟ » قالتها بنفس اللهجة التى سمعها فى الحلم ، وانتظر أن تكمل ما قالت ... ولكنها لم تقل شيئاً ، فظل يحدق فيها بشدة وهو منصرف إلى صورتها الأخرى فى المنام !

قالت : — مالك تنظر إلى هكذا !

قال : — أليس عندك ما تزيدين ؟

قالت : — كلا ! فهذا هو قرارى الأخير .

قال يغمغم : — والحلم ؟

قالت: — أى حلم تريد ؟ حلمك ! إنك لم تفصح لى عنه بالتفصيل.

هنا عاوده اضطرابه . . . أيفضى إليها بالحلم الفظيع ؟

قال : — اسمعى يا سميرة (وضغط يدها بين يديه) لقد قلت لك إننى على استعداد لأن أغفر كل شىء ، كل شىء ، أياً كان !!!

حدقت فى عينيه بشدة ، وانفجرت تبكى !

رباه ! ما دلالة هذا البكاء ؟ أهى الحقيقة المفزعة تواجهها فتبكى ؟ أم هى التهمة الأليمة تصيبها فتتلوى ؟ من ذا يعطيه اليقين ويسلبه الحياة ؟

ثم أفاقت لتقول

— ألم أقل لك إن حياتنا لن تصلح بعد الآن ؟

قال : — ولم لا تصلح ؟ وماذا جد الآن ؟

قالت : — لا تغالط نفسك ، إنك لن تثق بى مرة أخرى ، لا يخدعنك أنك تشعر فى لحظة ما بالتسامح الكبير . إن هذه اللحظة ستزول ، ستزول عند ما يضمنا بيت واحد ، وعند ما يطالب كلاً من صاحبه تبعات الحياة المشتركة . . . بربك تصور أنى كنت سائرة معك فى الطريق فلقينا ضياء ! ألا تثور فى نفسك المعركة من جديد ؟ ألا تتزاحم فى خاطرك الصور من جديد ؟ ألا تهجم عليك هواجسك من جديد ؟ أيمكن أن تستقيم بعدها الحياة ؟

. . . والأحلام ؟ من ذا يعصمك ياصديقى من هذه الأحلام ؟

ثم ابتسمت وبدا على وجهها حنان الأم للطفل المخدوع !

وقال هو فى ذهول :

— وأنت ما خط سيرك فى الحياة ؟

قالت : — سأعيش راهبة .

قال : — هذا يخيفنى من أجلك !

قالت : — اطمئن إذن فسأقبل أول طارق من عرض الطريق دون سؤال أو استفهام !

وأحس بأن الموقف قد انتهى ، وأن لا سبيل إلى زيادة كلمة واحدة .

قالت وهى تنهض وتشدُّ يده :

— لنكن أصدقاء !

فأجاب فى صوت خافت :

— وهو كذلك . فلنكن أصدقاء !

أحلام

كان يقول لها — أيام أن كانا يلقيان — إننى أستطيع أن أشم رائحتك وأميزها من بين ألف فتاة فى الظلام ! وكان هذا يسرها ويستخفها ، فتحاول أن تخفى سرورها وخفتها بالتهكم وبالدعابة ، فتقول : « إن حاسة الشم قوية جداً عند بعض المخلوقات » فيضربها على يدها ويتضاحكان .

* * *

لم يدر فى ذات يوم — وهو يسير فى شارع سليمان باشا نحو شارع فؤاد — ما الذى جعل هذه الذكرى تقفز إلى خاطره بعد أعوام ... ولكنه يدرى أنه اندفع على الأثر يشق زحام الخارجين من السينما القريبة وهو يفتش فى الزحام عن شىء لا يتبينه فى ذهنه على وجه التحقيق

ثم كانت المفاجأة عند ما استدار أحد هذه الوجوه ، وحين نظرت إليه — كما نظر إليها — وفمها مفغور وحدقتاها متسعتان ، وهى تقول فى دهشة :

أوه . أهذا أنت ياسامى !

قال فى ابتسامة بلهاء :

— نعم أنا !

ومدت إليه يدها فى اندفاع وصافحته بحرارة ، وهو مستسلم لا يكاد يحرك أصابعه ، وحانت منها التفاتة خاطفة إلى أصابعه فى كفها فراحت تقول :

— ألا تزال وحيداً كما أنت ؟

قال :

— هذا لا يهم على كل حال . وأنت ؟

ثم التفت إلى الطفل الصغير الذى يمسك بطرف ثوبها وينط وهو يسير بخطوات قافزة صغيرة ، وقال :

— أهذا ابنك ؟

قالت :

— نعم !

وقبل أن تنطق لفظتها كان قد انحنى على الطفل فرفعه بين يديه وتفرس فى وجهه ، ثم أهوى عليه يقبله فى أنس وألفة ، وفى حنان ولهفة إنه يعرف هذا الوجه ، يعرفه جيداً ، وإن لم يكن رآه قبل الآن .

وتابع حديثه معها :

— أهو وحيد ؟

قالت :

— نعم لم يأت سواه

وما اسمه ؟

قالت : (سمير)

كاد يصيح من الدهشة ولكنه تماسك ، وتظاهر بالسكون
ورددت شفتاه فى شبه همس :

— سمير ؟ غريبه !

قالت :

— أليس هو هذا اسمك المختار :

قال :

— أى نعم . ولكن . . .

ثم نظر إليها فاذا هى تنكس بصرها ، وتبدو فى عينيها ظلال معركة ، فماتت على شفتيه الكلمات ، ومد يده فأخذ بيد الطفل الأخرى ، وساروا ثلاثتهم ، لا يشك أحد ممن يراهم فى أنهم طفل ووالدان .

* * *

كان قد جرب مرة ومرة — فى أيام الفراغ — أن بعض

الوجوه تلفته إليها . ثم كشف مرة أن فى كل وجه يلفته شبهاً قريباً أو بعيداً بالوجه الخالد فى ضميره ، فعرف سر هذا الالتفات !

وكان قد استيقظ لنفسه وميوله ، فعرف أنه يحب من الألوان ما رآه يوما عليها ، ويحب من السمات ما يقرب من سماتها ، ويحب من الطرقات ما سارت مرة فيه ، ويحب من الأماكن ما التقيا مرة هناك ، فآمن أنه مقيد مقود ، وأنه لا يستطيع أن يتجه إلى وجه جديد .

ولم يحاول فى أول الأمر أن يعرف من أخبارها شيئاً ، فاللقاء الأخير كان ينذر بالنهاية الأخيرة . وكان يرى فى اهتمامه بها بعد ذلك نوعا من الضعف يستكبر عليه ولا يرضاه .

ثم انقضت فترة أخرى ، فانقلب هذا الشعور ، وبات ملهوفا على خبر من أخبارها ، أو أثر من آثارها ، وكم مرة بعد مرة دافعته يده إلى القلم ليكتب إليها أو لأحد من أهلها .

ولكنه كان يمسك نفسه من تلبية هذا الخطر الداهم حتى يثوب إليه هدوؤه ، وحتى تذهب عنه سورته ، فيسكن إلى أن يعتاده هذا الخاطر بعد أيام .

ثم انقضت هذه الفترة أيضاً . وعاد لا يريد أن يعلم من أخبارها

شيئاً ، لا لأنه لا يريد أن يعلم ، ولا لأنه يستكبر على أن يعلم، ولـكن لأنه يشفق من شيء يتوقعه ، ولا يتصور كيف يكون وقعه على نفسه إذا كان !

وكان له فى كل يوم لقاء معها ، ولـكن فى الخيال، وحوار يدور بينهما ، ولـكن فى الخيال . وكثيراً ما استيقظ لنفسه ، وهو يبسم أو يتجهم ، ويشير بيديه وقسماته ، بينما هو منفرد فى البيت أو فى الطريق !

كان يحس أنها له وحده ، ولا يمكن أن تكون لأحد سواه .
وكان يشعر أنها أعطته وحده مالا تستطيع أن تعطيه أحداً سواه .
وكان يتصور أنه ترك عليها ظله فلم تعـد تصلح لأحد سواه .

وكان يعتقد أنها ملكه وحده ، ولو لم يكونا رفيقى حياة .

لقد بنى فى أحلامه عشهما المنتظر ، ولقد مضى بخياله يطوى الأيام ، ولقد عاش فى هذه الأحلام عيشة الواقع ، واستغرق فى هذا الخيال حتى لم يعد يفرق بينه وبين الحقيقة !

وما الفرق بين الخيال والواقع ، إذا كان كلاهما يستجيب له القلب والذهن ، ويترك آثاره فى النفس والحياة ؟

وما الفرق بين الحلم والحقيقة ، وكلاهما طيف عابر ، يلقى ظله على النفس ، ثم يختفى منه من عالم الحس بعد لحظات ؟

على أية حال ، لقد عاش أحلامه ، وجسم خياله ، فكانت هذه المخلوقة رفيقة حياته ، ومعها عاش فى العش الدافئ ، ومنها بلا شك كان له طفل !

طفل وحيد . . . فما كان يتصور أن تلد له أكثر من طفل واسمه « سمير » ، فما كان يتصور أن يكون اسمه غير سمير . وهو طفل من لحم ودم ، حدثها عن شكله وسمته ، فهو طفل معروف السحنة واضح السمات !

هو سمير هذا بعينه الذى يراه الآن !

***

مر هذا الشريط كله فى ذهنه ، وهما يدلفان إلى محطة الترام ، فى غير انتباه . وجاء الترام ، فصعدت إليه فى حركة آلية ، وهو يساعدها ، ويُصعد إليها « سمير » .

وعندما تحرك الترام أدركته صحوة مفاجئة ، ونظر فإذا هى كذلك تلوح له بمنديلها ، ثم تجفف به قطرات من الدموع !

وفيما يشبه الذهول وجد نفسه يعدو خلف الترام . . . ثم يقف فجأة كأنما سمر فى مكانه :

— ماذا ؟ إلى أين ؟ إنها ليست لك الآن ! إنها ذاهبة إلى هناك !

وأحس بالدوار .

ولكنه أفاق :

— سمير ؟ غريبة ! . . . أليس هذا هو اسمك المختار ؟

— كلا ! إنها لك . لك أنت وحدك برغم كل ما كان . لقد ألقيت عليها ظلاك ، لقد طبعتها بطابعك ، لقد وسمت طفلها باسمك الذى اخترته ، إنها لك ، ولن تصلح لأحد سواك !

— أحلام !

— أحلام ؟ وما الفرق بين الحلم والحقيقة إذا كان كلاهما يستجيب له القلب والذهن ويترك آثاره فى النفس والحياة ؟

— خيالات !

— خيالات ! وما الفرق بين الخيال والواقع ، وكلاهما طيف عابر يلقى ظله على النفس ثم يختفى من عالم الحس بعد لحظات ؟ . . .